الوظيفةُ الإعلاميةُ للشعرِ التُّراثيِّ
في نُصرةِ قضيةِ القُدْسِ

إعـداد

أ.د. صبري فوزي أبو حسين

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بمدينة السادات

للعام الجامعي

١٤٤٦/٢٠٢٤م

الوظيفةُ الإعلاميةُ للشعرِ التُّراثيِّ في نُصرةِ قضيةِ القُدْسِ

د. صبري فوزي عبدالله أبوحسين

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بمدينة السادات ، جامعة الأزهر ، مصر

البريد الإلكتروني: Sabrymhamed@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

من يقرأ مسيرة القدس منذ عصر الحروب الصليبية يجد دورًا مهمًّا لفن الشعر في مناصرة القدس وأهلها؛ حيث ظهرت رسالة الشعر التراثي جلية في أواخر القرن الخامس الهجري، وما بعده، ولم يكن الشعر العربي التراثي بمعزل عن ذلك، وما ينبغي له، بل تأثر بهذه الأحداث التي ألمت ببيت المقدس وأهله، فسجل آثارها، ودعا المسلمين حكامًا ومحكومين إلى الجهاد من أجل تحرير القدس واسترجاعها.

وقد سبق لي أن درست هذا الموضوع من قبل في كتابي (القدس في شعر عصر الحروب الصليبية) المنشور سنة ٢٠٠٥م، ولكن ما جدَّ من اطلاعي على أشعار تراثية خاصة بالقدس، وما ابتُلينا به من الظروف المأساوية الآنية للقضية الفلسطينية على يد الصهاينة المجرمين ومن معهم، فَرَضا عليَّ إعادة النظر فيما ذكرته بالكتاب مرة ثانية، فكان أن وقفت على جملة وظائف إعلامية طيبة لشعرنا التراثي حول هذه القضية، ومن الجديد في هذا البحث الحديث عن الشعر القدسي في المعاجم الجغرافية واللغوية، والتأصيل لورود لفظة(القدس) مكانًا مباركًا ومعظمًا في شعرنا العربي منذ الجاهلية!.

و من ثم جاءت إعادة صياغة هذا البحث من خلال مادة شعرية جديدة، وجاء استدعاؤه لبيان أثر الشعر التراثي في نصرة قضية القدس من خلال محورين فكريين، هما: البكاء عليها وهي محتلة مغتصبة على أيدي الصليبيين، ثم دعوة كبار الأمة حينئذ وقادتها وأبطالها إلى الأخذ بأسباب تحريرها؛ لعلنا نعتبر

بأسلافنا المجاهدين الأبطال ونتزود من آثارهم العسكرية المجيدة؛ فننهض لنصرة إخواننا في فلسطين المنتفضة ثم المقاومة ثم المجاهدة، بارك الله أهلها المرابطين.

وقد جعلت البحث في هيكل أكاديمي مكون من تمهيد وثلاثة مباحث، وخاتمة، على النهج الآتي:

التمهيد: اصطلاحات البحث الرئيسة: (الوظيفة الإعلامية–الشعر التراثي– النصرة– قضية القدس)

المبحث الأول: بدايات الشعر التراثي مع القدس.

المبحث الثاني: إعلام الشعر التراثي باحتلال الصليبيين للقدس.

المبحث الثالث: دعوة الشعر التراثي إلى ضرورة تحرير القدس.

وفي الخاتمة مجموعة من نتائج البحث وتوصياته.

هذا، وقد التزمت في إنجاز هذا البحث ببعض إجراءات المنهج التاريخي، والمنهج الموضوعاتي، والمنهج النصي، ومنهج التفسير الإعلامي للشعر.

الكلمات المفتاحية:

[الوظيفة الإعلامية– الشعر التراثي– النصرة– القدس– الحروب الصليبية]

The media function of traditional poetry in supporting the cause of Jerusalem

Sabry Fawzi Abdullah Abu Hussein
Professor and Head of the Department of Literature and Criticism at the College of Islamic and Arab Studies for Girls in Sadat City, al Azhar University, Egypt.
Sabrymhamed@azhar.edu.eg

Abstract:

Whoever reads the history of Jerusalem since the era of the Crusades will find an important role for the art of poetry in supporting Jerusalem and its people. The message of traditional poetry appeared clearly in the late fifth century AH ، and after it .Traditional Arabic poetry was not isolated from that ،nor should it be .Rather ،it was influenced by these events that befell Jerusalem and its people ،so it recorded their effects ،and called on Muslims, rulers and ruled, to wage jihad in order to liberate it. Jerusalem and its recovery. I have previously studied this topic in my book (Jerusalem in the Poetry of the Era of the Crusades) published in 2005 AD, but my knowledge of traditional poetry specific to Jerusalem, and the current tragic circumstances of the Palestinian cause at the hands of the criminal Zionists and those with them, has afflicted us. They forced me to reconsider what I mentioned in the book again. It was then that I discovered a number of good media functions for our traditional poetry on this issue. What is new in this research is the talk about sacred poetry in geographical and linguistic dictionaries, and the establishment of the presence of the word (Jerusalem) as a blessed and exalted place in our Arabic poetry since pre-Islamic times!

Then this research was reformulated through new poetic material ،and it was called upon to demonstrate the impact of

traditional poetry in supporting the cause of Jerusalem through two intellectual axes ،namely :crying over it while it was occupied and usurped at the hands of the Crusaders ،and then calling on the elders of the nation at that time ،its leaders ،and its heroes to take the causes of edited ؛Perhaps we can regard our ancestors as heroic mujahideen and benefit from their glorious military influences. So we rise up to support our brothers in Palestine ،which is uprising ،then resistance ،then jihad .May God bless its people ،who are stationed.

I made the research into an academic structure consisting of an introduction, three sections, and a conclusion, according to the following approach:

In completing this research ،I adhered to some procedures of the historical approach ،the thematic approach ،the textual approach ،and the media interpretation approach to poetry.

Keywords: Media function - Traditional poetry - Victory - Jerusalem - The Crusades

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، القائل عن الشعراء الإيجابيين، أولئك المُسْتَثْنَيْنَ من الشعراء الذين يَتَّبعهم الغاوون، والذين يقولون ما لا يفعلون، بأنهم الذين: ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، الذي جمع لفن الشعر بين الوظيفة العملية والمتعة الفنية في قوله: "إن من الشعر حكمة، وإن من البيان لسحرا".

وبعد،

فليس فن الشعر عبثًا ولا تَرَفًا ولا مَسْلاة أو مَلْهاةً، بل إنه أساس التعرف على الحياة والأحياء، وديوان علم العرب، أقبل الأصلاء على تعلمه، وتعليمه، والبحث فيه، والعملِ على إحيائه واستدعاء نماذجه الإيجابية في كل عصر ومصر، ودَعَوْا إلى أن يظل في عصرنا– كما كان من قبل– ضرورةً من ضرورات الحياة العقلية، وغذاءً للعقول والقلوب، وتهذيبًا للنفس وتزكيةً للجنان، وتمرسًا على إجادة الفنون المنظومة والمنثورة، وتعرفًا على أساليب العرب وطريقتهم في الإبداع، ورأوا فيه مُقوّمًا لشخصيتنا، مُحقِّقًا لقوميتنا، عاصمًا لنا من الفناء في الأجنبي، مُعينًا لنا على أن نعرف أنفسنا ونُعرِّف بها؛ لأن الأمم تحيا بآدابها؛ ولذلك ترى المؤرخين يقرنون في آثارهم تاريخَ الأشعار مع تاريخ الوقائع، بل أفردوا للأشعار تاريخًا قائمًا بذاته يثبت ما يختص بالعلوم والمعارف في كل حضارة، مخبرًا عن نشأة الأشعار بينها واتساع نطاقها وأسباب ترقيِّها ودورها الإيجابي في إصلاح الحياة والأحياء.

ومن يقرأ مسيرة القدس منذ عصر الحروب الصليبية يجد دورًا مهمًّا لفن الشعر في مناصرة القدس وأهلها؛ حيث ظهرت رسالة الشعر التراثي جليةً في أواخر القرن الخامس الهجري، حين شنَّ أمراء غرب أوروبا الحرب على دول الشرق المسلمة، تدفعهم إلى ذلك عدة عوامل. وقد انتهى أمر الحملة الأولى بهزيمة منكرة على يد السلاجقة، ثم تفكك المسلمون، فانتصر الصليبيون، وكوَّنوا

إمارات صليبية هي: "الرها"، و"أنطاكية"، و"طرابلس"، ثم "بيت المقدس"، ولم يكن الشعر بمعزل عن ذلك، وما ينبغي له، بل تأثر بهذه الأحداث التي ألمَّت ببيت المقدس وأهله، فسجل آثارها، ودعا المسلمين حكامًا ومحكومين إلى الجهاد من أجل تحرير القدس واسترجاعها.

وقد سبق لي أن درست هذا الموضوع من قبل في كتابي (القدس في شعر عصر الحروب الصليبية) المنشور سنة ٢٠٠٥م، ولكن ما جدَّ من اطلاعي على أشعار تراثية خاصة بالقدس، وما ابتُلينا به من الظروف المأساوية الآنية للقضية الفلسطينية على يد الصهاينة المجرمين، فَرَضا عليَّ إعادة النظر فيما ذكرته بالكتاب مرة ثانية، فكان أن وقفت على جملة وظائف إعلامية طريفة لشعرنا التراثي حول هذه القضية، لاسيما في مجال الحديث عن الشعر القدسي في المعاجم الجغرافية واللغوية، والتأصيل لورود لفظة(القدس) مكانًا مباركًا ومعظمًا في شعرنا العربي منذ الجاهلية!.

ومن ثم جاءت إعادة صياغة هذا البحث من خلال مادة شعرية جديدة، وجاء استدعاؤه لبيان أثر الشعر التراثي في نصرة قضية القدس من خلال محورين فكريين، هما: البكاء عليها وهي محتلة مغتصبة على أيدي الصليبيين، ثم دعوة كبار الأمة حينئذ وقادتها وأبطالها إلى الأخذ بأسباب تحريرها؛ لعلنا نعتبر بأسلافنا المجاهدين الأبطال ونتزود من آثارهم العسكرية المجيدة؛ فننهض لنصرة إخواننا في فلسطين المنتفضة ثم المقاومة ثم المجاهدة.

وقد جعلت البحث في هيكل أكاديمي مكون من تمهيد وثلاثة مباحث، وخاتمة، على النهج الآتي:

التمهيد: اصطلاحات البحث الرئيسة: (الوظيفة الإعلامية–الشعر التراثي– النصرة– قضية القدس).

المبحث الأول: بدايات الشعر التراثي مع القدس.

المبحث الثاني: إعلام الشعر التراثي باحتلال الصليبيين للقدس.

المبحث الثالث: دعوة الشعر التراثي إلى ضرورة تحرير القدس.

وفي الخاتمة مجموعة من نتائج البحث وتوصياته.

هذا، وقد التزمت في إنجاز هذا البحث ببعض إجراءات المنهج التاريخي، والمنهج الموضوعاتي، والمنهج النصي، ومنهج التفسير الإعلامي للشعر.

وأقدم خالص شكري وتقديري إلى أستاذي الدكتور كاظم الظواهري، والأستاذ الدكتور إبراهيم راشد، على تفضلهما بقراءة هذه البحث في مُسوَّدته الأولى؛ فقد كان لتوجيهاتهما أكبر الأثر في تنقية البحث وتطويره.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

التمهيد

اصطلاحات البحث الرئيسة

[الوظيفة الإعلامية – الشعر التراثي – النصرة – قضية القدس]

يظهر من عنوان البحث أنه ينبني على اصطلاحات أربعة رئيسة، هي:

[١] الوظيفة الإعلامية للشعر:

تكاد تجمع كلمة الأدباء والنقاد والمفكرين قديمًا على الوظيفة الإعلامية للشعر، انطلاقًا من المقولة العربية السيارة: (الشعر ديوان العرب وعنون الأدب)؛ فالشعر يهذب العقل ويزكي الجنان، ويساعد في التعرف على أساليب العرب وطريقتهم في الإبداع وترويض الأخلاق وإلانة الطبائع، والإعانة على اكتساب المروءات، والتعريف بحال الأمة، وما تعيشه من تحديات وأخطار، وما عند أهلها من آمال وآلام. يقول الدكتور صلاح فضل: "من المعروف أن الشعر العربي في تاريخه الطويل كان يقوم بأداء وظائف الإعلام الحديث من حيث تناقل الأخبار عبر الأماكن والأجيال، وتشكيل ما يوازى المجال العام من التغني بالأمجاد القبلية وترسيخ مفاهيم الهوية، وأخطر من ذلك من الوجهة السياسية. كان الشعر هو الذي يؤسس لشرعية السلطة والدعاية للحكام والقادة عن طريق موضوعه الأثير وهو المديح، فلم يكن أثره مجرد إشباع لحاجة السلطة إلى الفخر وحاجة الشاعر إلى العطايا، بل كان دعامة النظام السياسي مثل الإعلام اليوم لكنه إلى جوار ذلك كان يقوم بوظائف اجتماعية وثقافية ويؤديها بشكل جمالي بديع، كان ينسج منظومة القيم التي ينبغي أن تسود المجتمع من نبل وكرم وشجاعة ومروءة، لا باعتبارها واقعا يتجسد في الحكام كما توهم قصائده، بل على أساس أنها مُثُلٌ عليا عليهم أن يغالبوا جبنهم وبخلهم وأنانيتهم كي يصلوا إلى تحقيقها، فدعاية الشعر كانت حثًّا على الفضائل مضمخًا بعطر الفن وسحر اللغة ومتعة الجمال، كان

الناس يتداولونها لما تشبع فيهم من نهم للخيال وتوق للمعرفة وإيقاظ للعواطف الكريمة[١]".

إن الشعر ترجمان حضارة الأمة والمرآة التي تنعكس على صفحاتها أخلاقها وطباعها وأحوالها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، وهو نتاج قرائح جادت به بعد أن جرت الحكمة على ألسنة أصحابها فأصبحت "تراثاً عزيزاً يتلقاه الأبناء عن الآباء، وظلاً وارفاً يستظل به المكدود ويستريح إليه العاني وهو – كذلك – النغم الحبيب الذي يصغي إليه الشارد، واللغة المشتركة التي يتنازعها القريب والبعيد ويتباهى بها الغني والفقير، ويأبي أن يتجرد منها العامة والخاصة"[٢]، ولذا كانت له الأهمية الكبيرة في حياة الأمم، ولاسيما الأمة العربية التي احتفلت به منذ جاهليتها حتى اليوم. فصار كما قال شوقي عن وريثته الصحف:

لسانُ البلاد ونبض العبادِ ∴ وكهف الحقوق وحرب الجَنَفْ

تسير مَسيرَ الضحى في البلادِ ∴ إذا العلم مزق فيها السَّدَفْ

وتَمشى تُعلِّم في أمة ∴ كثيرة مَن لا يخط «الألفْ»[٣]

إن الشاعر إنسان يمتلك من الأدوات، والقدرة على تصوير المشاعر والأحاسيس والقضايا ما ليس موجودًا عند سواه، ومن ثم لابد أن يستثمر فن الشعر استثمارًا مفيدًا نافعًا لشباب الأمة، وجميع أهلها بأن يقدم لهم النموذج الأمثل، والقدوة الصالحة، ويضع أيديهم على تاريخ الأسلاف ليصل واقعنا المأزوم بماضينا

(١) من مقاله(الشعر والأدب في وسائل الإعلام)، المنشور في جريدة المصري اليوم بتاريخ ٢٠١٩/١/١٨م.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر د. إبراهيم على أبو الخشب ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م صـ١٢ .

(٣) الشوقيات ص١٨٧، طبع مؤسسة هنداوي الإلكترونية، سنة٢٠٢٢م، الجنف: الحيف، والسدف: الظلمات.

الناهض المشرف، فنأخذ من ماضينا المثل الأعلى من منظوم القول وبلاغة الحجة، ونستعيد تلك الأمجاد التي حاول المغرضون تشويه صورتها ومحو معالمها، ونستدعي تلك الشخصيات التي ضربت أروع الأمثلة في المروءة والنجدة وحماية الدين والوطن، ثم نستظل بهذا الظل الوارف من البيان العربي الذي تستروح النفس عند سماعه وتهفو القلوب إلى ترداده.

وللشعر أثر عميق في النفوس يهزّها هزًّا، ويدفعها دفعًا إلى ما يرمي إليه، وفي المجاميع الأدبية كثير من النصوص الدالة على قوة هذا التأثير؛ فمن ذلك ما كتبه "عمر بن الخطاب" إلى "أبي موسي الأشعري" –رضي الله عنهما–: "مُر من قِبَلَك بتعلم الشعر، فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأي"، وما قاله "سيدنا معاوية"–رضي الله عنه–: "يجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب"، وقال "عبد الملك بن مروان" لمؤدِّب ولده في وصيته إياه: "وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا" [(١)]، ويقول ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ): "الشعر معدن علم العرب، وسفر حكمتها، وديوان أخبارها، ومستودع أيامها، والسور المضروب على مآثرها، والخندق المحفور على مفاخرها، والشاهد العدل يوم النِّفار، والحجة القاطعة عند الخصام، ومن لم يقم عندهم على شرفه وما يدعيه لسلفه من المناقب الكريمة والفعال الحميدة بيتٌ منه . شذّت مساعيه وإن كانت مشهورة، ودرست على مرور الأيام وإن كانت جسامًا. ومن قيّدها بقوافي الشعر، وأوثقها بأوزانه... أخلدها على الدهر[(٢)]"، ويذكر "ابن رشيق" كثيرًا من الأمثلة التاريخية التي هزّ فيها الشعر النفوس، وأثر فيها عميق الأثر كهذا الشعر الذي روي في استعطاف "أبي الطيب

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، باب في فضل الشعر ١٦/١. وباب في الرد على من يكره الشعر، صـ ٢٧– ٢٩ – وينجدوا : النجد هو الشجاع الماضي فيما يعجز عنه غيره، وراجع الأدب المفرد للبخاري باب من قال: إن من البيان سحرا، أثر رقم ٨٧٣. .

(٢) عيون الأخبار ١٨٥/٢، وراجع الأدب العربي بين الصدق الفني والأخلاقي في صدر الإسلام ص٦٣، د. شوقي حمادة، سنة ١٩٧٩م .

المتنبي" سيف الدولة لبني كلاب، وقد أغار عليهم وهزمهم فأتى بعضهم أبا الطيب يسأله أن يشفع فيهم فقال في قصيدة مشهورة خاطبه فيها واستعطفه من أجلهم، فكان للمستشفعين بأبي الطيب ما أرادوا(١)؛ فللشعر وظائفه الإعلامية المتعددة، ودوره في تسجيل هذه الأخبار والأحداث ونقلها باعتبارها ميراثًا وتراثًا . من جيل إلى جيل، في البيئات والمجتمعات التي لم تعرف التدوين الكتابي. وما كان لنا . في العصور اللاحقة . أن نعرف هذه الوظائف لولا الشعر الذي استطاع بفضل وظائفه الجمالية وآلياته الأدبية أو الفنية كالوزن والقافية أن يعلق بالذاكرة البشرية على نحو يسهل معه حفظه وتناقله وخلوده..(٢).

وهكذا كان – وما يزال – للشعر أثر السحر في النفوس بما له من وقع حسن عليها، ولاسيما إذا صدر ذلك الشعر من شاعر امتلك ناصية اللغة وتسنّم ذروة البيان، وكان صادقاً في شعره وتجربته .حقا إن الشعر ديوان العرب، ففيه تسجيل عادات العرب وأخلاقهم وتاريخ وقائعهم وأيامهم وما أودعوه من معادن حكمتهم وكنوز آدابهم؛ فقد كان العرب قبل الإسلام أمة أمية كتابهم الطبيعة، ومدرستهم الحياة، وأقلامهم ألسنتهم، ودفاترهم قلوبهم، وكان كل من أراد منهم تقييد فكرة، أو تخليد حكمة، أو تثبيت مأثرة، أو إظهار عبقرية في دقة الإحساس ولطف التصوّر وإتقان التصوير، أنشأ في ذلك أبياتا أو قصيدة، فلا تكاد تجاوز شفتيه حتى يتلقفها الرواة فيطيروا بها كلَّ مَطار، فكان الشعر وحده هو مؤلفاتهم وهو تاريخهم وهو مظهر نبوغ مفكريهم. والتفسير الإعلامي للأدب لا يذهب مع المناهج الأخرى في اعتبار الرسالة أهم شيء في العملية الأدبية؛ فقد تبين أن الرسالة جزء من الموقف الاتصالي العام، بأبعاده النفسية والاجتماعية والثقافية، وقد حرصت نظرية الاتصال على تأكيد أننا نتصل لكي نؤثر، وأنه لا توجد عملية اتصال بدون

(١) أسس النقد صـ ٢٦، ٢٧ – وينظر : العمدة ١/ ٦١.

(٢) الشعر هل هو حقا ديوان العرب، مقال في جريدة العربي، د/محمد رجب النجار، يونية سنة ٢٠٠٢م..

هدف، والناس يسعون دائمًا للتأثير في البيئة وفي الآخرين أيضًا، ولذلك ينظر التفسير الإعلامي للأدب على أنه لا يوجد ما يسمى(الأدب للأدب) وما إلى ذلك من الدعوات، وأن الأديب المُرسِل في عملية الاتصال له نوعان من الأهداف؛ فقد ينتج عناصر اتصالية مقصودة لذاتها بهدف الإمتاع، أو وسيلة استعمالية لتحقيق غايات أخرى، وهنا يصبح الجمهور المستهدف مرتبطًا تمام الارتباط بالغاية المقصودة[١]"، ومن هنا تكمن وظائفه الإعلامية وصفًا وإخبارًا، بأحوال واقعنا، وتحليلًا لأحداث حياتنا، ونقدًا للناقصين والمهملين، وحثًّا، وحضًّا على الثبات والصمود، وتنبيهًا على المخاطر داخليًّا أو خارجيًّا.

[٢] مصطلح الشعر التراثي:

هذا المصطلح يقصد به في البحث كل الشعر العربي منذ نشأته الجاهلية من مائة وخمسين أو مائتين قبل ظهور الإسلام، حتى نهاية العصر العثماني وبداية العصر الحديث(٩٢٢هـ-١٢١٣هـ)، أو بتعبير زمني آخر(مطلع القرن التاسع عشر الميلادي)[٢]! مع التركيز على العهد الذي حضرت فيه القدس كقضية شائكة، وكمحور صراع بين الشرق والغرب، وهو عصر الحروب الصليبية عامة، والعهد الأيوبي خاصة.

أما عصر (الحروب الصليبية) فهو مصطلح يطلق حاليًا على مجموعة من الحملات والحروب التي قام بها الأوروبيون من أواخر القرن الحادي عشر حتى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر (١٠٩٦- ١٢٩١م)، وكانت بشكل رئيس حروب فرسان، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى الذين اشتركوا فيها، وكانت حملات

---

(١) في التفسير الإعلامي للأدب، د/عبدالعزيز شرف ص٢١، طبع الهيئة العامة سنة٢٠٠٢م.

(٢) راجع بحث: تحقيب الأدب العربي: قراءة نقدية في أبجدياته وإشكالياته، أ.د/صبري فوزي أبو حسين، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق، ع ١٣، ص٥٢٣، سنة ٢٠٢٣م، وهو مثبت في موقع مجلة الكلية على بنك المعرفة المصري، على الرابط:
https://journals.ekb.eg/?_action=xml&article=312148

دينية، وتحت شعار الصليب من أجل الدفاع عنه، وذلك لتحقيق هدفهم الرئيسي وهو السيطرة على الأراضي المقدسة كبيت المقدس، ولذلك كانوا يخيطون على ألبستهم على الصدر والكتف علامة الصليب من قماش أحمر[١].

وهذا العهد ينتمي إلى ما يسمى في تاريخ أمتنا العربية المسلمة بالعصر الوسيط أو عصر الدول المتتابعة[٢]. ويشمل مجموعة من الدول، هي:

– **ٱلدَّولـةُ ٱلسَّلْجُوقيَّة** أو دولة بني سَلْجُوق أو دولة السَّلاجقة العظام (يُطلَق عليها الاسم الأخير لتمييزها عن دول السَّلاجقة اللاَّحقة التي ظهرت بعد تفكّكها وانهيارها) هي واحدة من الدول الكبرى في تاريخ الإسلام وإقليم وسط آسيا، لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الدولة العباسية والحروب الصليبية والصِّراع الإسلامي البيزنطي. تأسَّست الدولة على يد سلالة السَّلاجقة، وهي سلالة تركيَّة تنحدر من قبيلة قنق التي تنتمي بدورها إلى مجموعة أتراك الأوغوز. حكمت الدولة السَلْجُوقيَّة في أوج ازدهارها كافَّة إيران وأفغانستان ووسط آسيا وُصولاً إلى كاشغر في الشرق، فضلاً عن العراق والشام والأناضول غرباً وُصولاً إلى مشارف القسطنطينية .قامت الدولة منذ عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) عندما دخل مؤسِّسها طغرل بك مدينة مرو في وسط آسيا، وحتى عام (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) عند وفاة السلطان أحمد سنجر، الذي

(١) راجع معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية ص٢٤٨، أنور محمود زناتي سنة ٢٠١١م، وقاموس المصطلحات التاريخية، إنكليزي عربي، أنور محمود زناتي طبع مكتبة الأنجلو المصرية سنة ٢٠٠٧م، وما جاء في موسوعة ويكيبيديا على الرابط:https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8% .

(٢) راجع في ذلك الأدب العربي في العصر الوسيط، د/صبري فوزي أبو حسين سنة ٢٠١٤م، وبحث: تحقيب الأدب العربي قراءة نقدية في أبجدياته وإشكالياته، أ.د/صبري فوزي أبو حسين، ص٥٢٢. مرجع سابق.

تفكَّكت الدولة بعده إلى دويلات منفصلةٍ حكمت أجزاءً مختلفة من وسط وغربي آسيا(١).

– **الدولة الزنكية الأتابكية** التي أسسها عماد الدين زنكي في الموصل(سنة ٥٢١هـ=١١٢٧م) وامتدَّت لاحقًا لِتشمل كامل الجزيرة الفُراتيَّة والشَّام، ثُمَّ بلغت مصر في عهد الملك العادل نُور الدين محمود، الذي ضمَّها على يد تابعه وربيبه يُوسُف بن نجم الدين الأيُّوبي (صلاحُ الدين فيما بعد)، بعد وفاة آخر الخُلفاء الفاطميين أبي مُحمَّد عبدُ الله العاضد لِدين الله دون عقب. وانتهت بسقوط الجزيرة الفراتية على يد المغول سنة ٦٤٨هـ=١٢٥٠م(٢).

– **الدولة الأيوبية**، وهي ما يطلق عليه فترة حكم الأيوبيين. وبنو أيوب: أسرة مسلمة حكمت أجزاء واسعة من المشرق العربي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، وقد تأسست الدولة الأيوبية على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي في مصر، كان ذلك بعد أن عُيِّن وزيرًا للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله ونائبًا عن السلطان نور الدين محمود في مصر، فعمل على أن تكون كل السلطات تحت يده، وأصبح هو المتصرف في الأمور، وأعاد مصر إلى تبعية الدولة العباسية، فمنع الدعاء للخليفة الفاطمي ودعا للخليفة العباسي، وأغلق مراكز الشيعة الفاطمية، ونشر المذهب السني، ثم امتد حكمه إلى الشام والحجاز وشمال العراق وديار بكر بجنوب تركيا وجنوب اليمن

(١) راجع في ذلك تاريخ دولة آل سلجوق، عماد الدين الأصفهاني ت٥٩٧هـ، دار الكتب العلمية بيروت، دار الكتب العلمية سنة ٢٠٠٤م.وراجع ما ورد في الموسوعة الدولية ويكيبديا على الرابط:https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D .

(٢) الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين الشهيد في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، للدكتور علي الصلابي، طبع مركز الكتاب الأكاديمي، سنة ٢٠١٦م.

والنوبة وبعض أجزاء بلاد المغرب، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين[١].

[٣] مصطلح النصرة:

النُّصْرة لُغةً: النَّصرُ والعَونُ، وهي اسمٌ مِن نَصَره على عَدُوِّه ينصُرُه نَصرًا، أي: أعانه وقوَّاه، والنَّصيرُ والنَّاصِرُ واحِدٌ[٢].

والنُّصْرة اصطِلاحًا: تلك الغَيرةُ الإيمانيَّةُ التي تدفَعُ المُسلِمَ لرَفعِ الظُّلمِ عن أخيه المُسلِمِ المُستضعَفِ... ولا تكون النُّصرة إلا على المُنازِعِ المُغالِب، والخصم المُناوِئ المُشاغِب. ولمصطلح (النصرة) في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية دلالات عدة، هي اتباع دين الله، والجهاد في سبيله، وطاعة أوامره، واجتناب معاصيه، والتأييد والمساعدة على التفوق والغلبة، والمؤازرة، ومساندة الحق وإشاعة العدل، والأخذ الثأر ودفع العدوان[٣].

وكل هذه الدلالات مقصودة في قضية القدس ماضيًا وآنيًا؛ فالقدس محتاجة إلى النصرة الشعرية الإعلامية، انطلاقًا من القول النبوي الشريف: "ما يمنع القوم الذين نصروا رَسُول اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بأسيافهم أن ينصروه

---

(١) راجع في ذلك: قيام الدولة الأيوبية، وفاء محمد علي، دار الفكر العربي سنة ١٩٨٧م.، والأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية، أ/عبداللطيف حمزة، طبع مكتبة النهضة المصرية سنة ٢٠٠٠م.

(٢) لسان العرب(ن/ص/ر).

(٣) راجع: معجم المصطلحات السياسية في لغة الفقهاء ص٢٢٨، سامي الصلاحات، طبع سنة ٢٠٠٦م، والقيم الخلقية في الشعر العماني الحديث، صالح الشعيلي ص١٤٨، الجمعية العمانية للكتاب والأدباء سنة ٢٠٢٢م، وهذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقا، محمود أحمد الخازندار ص٥٧، طبع دار طيبة بالرياض سنة ١٩٩٧م، وإخراج الأمة الإسلامية وعوامل صحتها ومرضها ص٨٤، ماجد عرسان الكيلاني، كتاب الأمة سنة ٢٠١٧م، وراجع موقع الدرر السنية على الرابط:https://dorar.net/alakhlaq/2769/%D

بألسنتهم؟[١]...، وغير ذلك من النصوص الحاثة على الجهاد بالسنان واللسان، في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان؛ فالنصرة فرض، والخذلان كبيرة.

[٤] مصطلح قضية القدس:

قضية القدس: تعبير ثقافي حديث شاع استخدامه في كثير من المقالات والمؤلفات والأبحاث التي تُعنَى بالتعريف بحالة القدس الشريف على يد الاحتلال الصهيوني الغاشم منذ سنة النكسة ١٩٦٧م؛ حيث فرضت إسرائيل في عام ١٩٦٧ احتلالاً عسكريًّا على القدس الشرقية وباقي الضفة الغربية وقطاع غزة. وقد ظهر هذا المصطلح في عناوين بعض الأبحاث مثل (قضية القدس في شعر عمر أبي ريشة)، للباحث أبي بكر الصلاتي، و(قضية القدس في الشعر العبري الحديث) للباحث جمال عبدالسميع الشاذلي، و(قضية القدس ومستقبلها في القرن الحادي والعشرين) إبراهيم أبو جابر، و(قضية القدس دراسة تاريخية) للباحث حسين إمام أحمد...إلخ.

وتم إطلاق هذا المصطلح –(قضية القدس)– في هذا البحث، على ما عانت منه القدس على يد الاحتلال الصليبي في العصر الوسيط؛ للربط بين حال القدس ماضيًا وحالها آنيًا، لا سيما مع حرب طوفان الأقصى، التي رأينا فيها، بل رأى العالم كله فيها أعاجيب من صمود الشعب الفلسطيني في مواجهة الاحتلال الصهيوني الغشوم الذي يمارس الإبادة الجماعية في أقبح صورها عبر تاريخ الإنسانية كلها!.

والمقصود من هذا المصطلح في بحثي التدليل من ديوان الشعر العربي التراثي على أن القدس كانت همَّ كل شعراء العصر الوسيط سلجوقيًّا وزنكيًّا وأيوبيًّا.

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٤٨٢/١، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ٥٦٢/١٠، باب هجاء المشركين.

المبحث الأول

بدايات الشعر التراثي مع القدس

إن التعرف على بدايات تعامل الشاعر العربي القديم مع القدس لفظًا لغويًّا واسمًا تاريخيًّا مباركًا ينطلق من القراءة الثقافية والحضارية للجذر اللغوي(ق/د/س) في المعاجم اللغوية والمعاجم الجغرافية. وقد أفدت في هذا المقال من جهد الدكتور عبدالحميد المعيني في كتاب طريف بعنوان: (القدس والقصيدة العمودية القديمة) أثبت فيه، من خلال تتبع لفظة القدس في ديوان الشعر العربي العتيق قبل الإسلام، أن (القدس) وردت في الشعر العربي العتيق في الجاهلية وما بعدها، و أن هذه الأشعار القدسية العتيقة تدل على عروبة اللفظة وعتاقتها في الاستعمال العربي.

تبدأ لفظة (القدس) بالحضور في المعجم العربي على أنها إسلامية الاستعمال في منظور ابن فارس، حيث يقول في معجمه مقاييس اللغة: "القاف والدال والسين أصل صحيح، وأظنه من الكلام الشرعي الإسلامي، وهو يدل على الطهر. ومن ذلك الأرض المقدسة هي المطهرة . وتسمى الجنة حظيرة القدس، أي الطهر، وجبرئيل عليه السلام روح القدس. وكل ذلك معناه واحد. وفي صفة الله تعالى: القدوس، وهو ذلك المعنى؛ لأنه منزه عن الأضداد والأنداد، والصاحبة والولد، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. ويقال: إن القادسية سميت بذلك، وإن إبراهيم –عليه السلام– دعا لها بالقدس، وأن تكون محلة الحاج"[1]؛ فلفظة (القدس) من مبتكرات المعجم العربي في عصر صدر الإسلام في نظر العلامة ابن فارس، وهي دالة على معنى الطهر.

وبالنظر في معاجم العربية العتيقة نجد استخدام العرب لفظة القدس والوصف منها مكانًا، ووصفًا، وأنها مستعملة عند العرب قبل ظهور الإسلام، حيث ورد في

(١) معجم مقاييس اللغة٥/٦٤-٦٥..

معجم لسان العرب أن "الأرض المقدسة: الشام منه، وبيت المقدس من ذلك أيضًا، فإما أن يكون على حذف الزائد (أي بيت المكان المقدس)، وإما أن يكون اسما...، وهو يخفف(المَقْدِس) ويثقل (المُقَدَّس)، والنسبة إليه مَقْدِسِي[١].

وورد فيه أن لفظة (القدس) أشير إليها باعتبارها وصفًا في الشعر التراثي، حيث ذكر المعجميون الأوائل أن النسبة المشتقة من الجذر (ق/د/س)، وهي (مقدسي) استعملت وصفًا للثوب في قول امرئ القيس يصف كلابًا تنهش الثور:

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا ∴ كما شبرق الولدان ثوب المقدسي[٢]

وأراد في هذا البيت الراهب، أي ثوب الراهب المقدسي، وهو الذي جاء من بيت المقدس فقطع صبيان النصارى ثيابه تبركًا بها! وجاء في معجم اللسان: حكى ابن الأعرابي: "لا قدسه الله، أي: لا بارك عليه، قال: والمقدس المبارك . والأرض المقدسة: المطهرة، وقال الفراء: "الأرض المقدسة الطاهرة، وهي دمشق وفلسطين وبعض الأردن، ويقال: أرض مقدسة، أي: مباركة وهو قول قتادة، وإليه ذهب ابن الأعرابي[٣]... وخرج إلى البيت المقدس وإلى القدس وإلى الأرض المقدسة ... وقدّس الرجل: أتى بيت المقدس كما تقول: كوّف وبصّر ومنه قولهم: راهب مقدّس[٤].

---

(١) لسان العرب (ق/د/س).

(٢) لسان العرب (ق/د/س). والهاء في أدركنه ضمير الثور الوحشي، والنون في أدركنه ضمير الكلاب، أي: أدركت الكلاب الثور، فأخذن بساقه ونساه وشبرقت جلده، كما شبرق ولدان النصارى ثوب الراهب المقدسي، والشبرقة: تقطيع الثوب وغيره، وقيل: يعني بهذا البيت يهوديا، ويقال للراهب مقدس، وأراد في هذا البيت بالمقدسي الراهب، وصبيان النصارى يتبركون به وبمسح مسحه الذي هو لابسه وأخذ خيوطه منه حتى يتمزق عنه ثوبه.

(٣) لسان العرب(ق/د/س)..

(٤) أساس البلاغة للزمخشري: (ق/د/س)..

ووردت هذه النسبة الواصفة في قول عمرو بن شأس الأسدي يذكر فضل عشيرته بني سعد على قبيلته بني أسد:

لمُختبطٍ منكَ كأنَّ ثيابَه ∴ نُبِشْنَ لحولٍ أو ثيابٍ مُقَدّسِ[1]

وبهذين البيتين، عند امرئ القيس وعمرو بن شأس، يكون استخدام اللفظة (القدس) عربيًّا عتيقًا في الجاهلية، وليس إسلاميًّا كما يزعم ابن فارس!!.

وينبغي التنبيه هنا إلى الوهم الذي يقع فيه بعض الباحثين، وتمثل في الاعتماد على قصيدة منحولة للشاعر اليهودي السموأل بن غريض بن عادياء، والاستدلال بها على عروبة القدس! فقد ورد في منشور فيسي بصفحة تعنى بالتراث الفلسطيني تحت عنوان (اسم القدس في الشعر الجاهلي) ما نصه: "حين نعود إلى أدب العرب قبل الإسلام ماذا نجد؟ نجد أن الشاعر الجاهلي (السموأل بن عادياء)، اليهودي، المضروب بوفائه المَثَل، صاحب حِصن (الأبلق الفَرد)، في (تيماء)– وقد قيل إنه من نسل (هارون بن عمران) أخي (موسى)– قد سمَّى تلك المدينة الفلسطينيَّة باسمها: «القُدْس»، في قصيدة منسوبة إليه، منها:

أألَسنا بَني (القُدْسِ) الَّذي نُصِبَت لَهُم ∴ غَمامٌ تَقيهِمْ في جَميعِ المَراحِلِ؟

أَلَسنا بَني السَّلْوَى مَعَ المَنِّ والَّذي ∴ لَهُم فَجَّرَ الصَّوَّانُ عَذْبَ المَناهِلِ؟

أَلَسنا بَني (الطُّوْرِ) المُقَدَّسِ والَّذي ∴ تَدَخدَخَ لِلجَبَّارِ يَومَ الزَّلازِلِ؟

فقائل هذه الأبيات (عربيّ، جاهليّ، يهوديّ)، ينطق بثقافةٍ سائدةٍ في زمنه، تمتح من ماضٍ سحيق، لا يصحّ الاستخفاف بما تحمله من إشارات تاريخيَّة"[2]!.

والحق أن هذه القصيدة ليست في ديوان السموأل المخطوط، الذي نشره لويس شيخو في مجلة المشرق، ع٣ تاريخ الإصدار الأول من مارس سنة ١٩٠٩م، السنة الثانية عشرة ص١٦٣–١٧٨، صنعة أبي عبدالله بن نفطويه، والذي يرجع

(١) شعر عمرو بن شأس الأسدي ص٣١، يحيى الجبوري، دار القلم بالكويت سنة ١٩٨٣م.

(٢) منشور بتاريخ ٢٠١٨/١/١٢م، على الرابط:

https://www.facebook.com/falsten.hestory?mibextid=ZbWKwL

تاريخ كتابته إلى سنة ٦٤٩هـ؛ فأصل هذه اللامية يرجع إلى المستشرق الألماني (هرشفلد)، الذي يعد أوّل من نشر هذه القصيدة في مجلّة «المشرق، ٩: ٤٨٢»؛ إذ وجدها في مخطوطات مكتوبة بالعِبريَّة. ثمَّ نشرها بالعربيَّة المستشرق الإنجليزي (مرجليوث) في «المجلَّة الآسيويَّة، نيسان ١٩٠٦، ص٣٦٣»، ونقلها عنه (الأب لويس شيخو)، في «المشرق، ٩: ٦٧٤». وعُثِرَ منها على نُسخٍ أخرى، منسوبة إلى (السموأل القُرَظي)! يقول د. جواد علي في كتابه (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) معلقًا على هذه القصيدة: وهي قصيدة تختلف في أسلوب نظمها وفي العرض العام عن طرق النظم المألوفة في الشعر قبل الإسلام، والشعر المنسوب إلى السموأل. وقد وردت فيه كلمة "رحمانهم" وأشير فيها إلى قصة إبراهيم الخليل، والذبيح ابنه، وإلى تسميته بإسرائيل، ثم إلى الأسباط. وقصة بني إسرائيل مع فرعون مصر. وقد أغرق الله فرعون في البحر. وإلى القدس والطور، وأمثال ذلك[١]. والحوادث المذكورة في هذه القصيدة، والاستشهادات التي استشهد بها الشاعر، وإن كانت مما هو مذكور في "الكتاب المقدس" بجزأيه، تدل على أن ناظمها قد استعان في نظم المصطلحات التي استعملها وطريقة تعبيره عن الحوادث بالقرآن الكريم، وبالقصص الوارد في كتب سير الرسل والأنبياء، وأن الغاية من نظمها هو إثبات مجيء المسيح، وقد جاء. وشهادة شاعر يهودي مفيدة ولا شك في هذا الباب. ولم ترد هذه القصة في ديوان ولا في كتب الأدب القديمة. وعدم ورودها في تلك الموارد، دليل على أنها مما وضع بعد تدوين شعر السموأل في الديوان المنسوب إليه وفي كتب الأدب القديمة. وأن هذه القصيدة هي من الشعر المصنوع المتأخرة بالنسبة إلى بقية ما نسب إليه[٢].

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام١٢/١٤٥، وراجع مقدمة ناشر كتاب شرح المضنون به على غير أهله للعبيدي، الأستاذ إسحاق بنيامين يهودا، ص(ح–ط)، مطبعة السعادة سنة ١٩١٣م.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام١٢/١٤٧.

ولا يجوز لنا الاستدلال بهذه القصيدة المكذوبة المنتحلة الموضوعة على عروبة القدس وغيرها من الأماكن المذكورة في هذه القصيدة المُزَوَّرة المُنتَحلة المُفتَراة! بل لعل الدافع على انتحالها هو التدليل على يهودية القدس!.

القدس اسمًا في الشعر التراثي:

ورد استعمال لفظة(القدس) اسمًا على المكان المبارك، واسمًا على جبل،وذلك في قول العجاج:

قد علم القدوس مولى القُدْسِ ∴ أن أبا العباس أولى نفسِ

بمَعدِنِ المُلْكِ القديمِ الكِرْسِ ∴ ليسَ بمقلوعٍ ولا مُنْحَسّ

حتى تزول هضبات قُدْسِ[1]

وقول الراجز يخاطب ناقته: **لا نومَ حتى تهبطي أرض العُدُسْ**

وتشربي من خيرِ ماءٍ بقُدُسْ

أراد الأرض المقدسة[2] .

وقدس، بالضم: جبل عظيم بنجد قال أبو ذؤيب:

فإنَّك حقًّا أيُّ نظرةِ عاشقٍ ∴ نظرت وقدسٌ دونها ووقيرُ

ويروى وقف دونها، قاله السكري[3].... وقد استخدمت اللفظة وما يشتق من جذرها(قادس/قادسية/قادوس/قداس/قَدَس) أسماء لمحسوسات لا صلة لها بمدينة

(١) أراد أنه أحق نفس بالخلافة. يعني بذلك: الكريم الأصل، ويروى: في معدن العز الكريم الكرس. وقال في القاموس المحيط: والكرسي؛ بالضم وبالكسر: السرير والعلم.وقدس:من ضخام جبال نجد. والرجز للعجاج في ديوانه ٢٠/٢١٧ – ٢١٨؛ ولسان العرب (ح/س/س) (ق/د/س) (ك/ر/س)؛ والتنبيه والإيضاح ٢/٢٦٧، وسمط اللآلي بشرح أمالي القالي ص٤٣٨، والأمالي ١١٧٨/١، الرجز بلا نسبة في لسان العرب وتهذيب اللغة، وتاج العروس (ل/د/س).

(٢) الرجز بلا نسبة في لسان العرب و وتاج العروس (ق/د/س).

(٣) البيت من الطويل، وهو لأبي ذؤيب في شرح أشعار الهذليين ص ٦٥؛ وفي معجمي لسان العرب و تاج العروس (و/ق/ر)، (ق/د/س).

القدس الشريفة المباركة.

ومن عجب أن تستخدم لفظة (أورسالم) الاسم القديم للقدس في شعر ينتمي إلى العصر الجاهلي في قول الأعشى:

وقد طُفت للمالِ آفاقَه ∴ عُمانٌ فحمصٌ فأورى سَلِمْ

أتيتُ النجاشيَّ في أرضِه ∴ وأرضِ النَّبيطِ وأرضِ العَجَمْ

فـ(أورى سلم بكسر اللام) هو الاسم الحقيقي والأصلي للقدس، وتعني دار السلام، ويدل على أن أول من أطلق هذا الاسم هم العرب الكنعانيون القدامى، وليس كما قال أبو عبيدة :هو عبراني معرب[١]. وورد اسم المسجد الأقصى باعتباره من البقاع العظيمة في مدينة القدس، منذ القرن الأول الهجري في قول الصحابي الشاعر زياد بن حنظلة التميمي[٢] يصور فرار الأرطبون قائد جيش الروم في موقعة أجنادين:

ونحن تركنا أرطبونَ مُطرّدا ∴ إلى المسجد الأقصى وفيه حسورُ

عشيةَ أجنادينَ لمَا تتابعوا ∴ وقامت عليهم بالعَراء نُسورُ

عطفنا له تحت العَجاج بطعنةٍ ∴ لها نشج نائي الشهيق غزيرُ

---

(١) المسائل الحلبيات لأبي علي الفارسي ص٣٧١، تح/حسن هنداوي، دار المنارة بيروت سنة ١٩٨٧م.

(٢) له صحبة، وهو الذي بعثه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر ليتعاونوا على مسيلمة الكذاب وطليحة والأسود، وقد عمل لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– وكان منقطعًا إلى علي –رضي الله عنه– وشهد معه مشاهده كلها. وهو شاعر وفارس، شجاع، من الجنود الفاتحين شارك في أكثر المعارك والفتوح الإسلامية منها: قتال المرتدين من عبس وذبيان في عهد أبي بكر الصديق، والمعارك التي دارت بين المسلمين والروم في بلاد الشام مثل أجنادين(من ناحية فلسطين)، وقد وصف هذه المعارك في شعره وتفاخر بانتصارات المسلمين فيها. الإصابة في تمييز الصحابة ص٥٥٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب ١٠٦/٢، ومعجم الشعراء العرب المثبت بالمكتبة الشاملة، حرف الزاي ص٣٤٠.

فطمنا به الرومَ العريضةَ بعدَه ∴ على الشام ما أرسلنا هناك سنيرُ[١]

وورد في الأغاني عن الشاعر مروان بن الحكم أيضًا في قوله يخاطب الفرزدق:

ودع المدينة إنها مرهوبةٌ ∴ واقصد لمكة أو لبيت المقدسِ[٢]

وأطلق الفرزدق اسم إيلياء على القدس في قوله:

ولو أنَّ طيرًا كلّفت مثلَ سيرهِ ∴ إلى واسط من إيلياء لكلّتِ

سما بالمهاري من فلسطين بعد ما ∴ دنا الفيءُ من شمس النهارِ فولّتِ[٣]

وفي قوله أيضا:

وبيتان: بيتُ الله نحنُ ولاتُه ∴ وبيتٌ بأعلى إيلياءَ مشرّفُ[٤]

والربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ظاهر في قول الشاعر عمر بن أبي ربيعة:

لا والذي بعث النبيَّ محمدًا ∴ بالنور والإسلام دين القيمِ

وبما أهلَّ به الحجيج وكبَّروا ∴ عند المقام وركن بيت المَحْرمِ

والمسجدِ الأقصى المبارَكِ حولَه ∴ والطورِ حِلْفةَ صادقٍ لم يَأثمِ[٥]

---

(١) راجع تاريخ مدينة دمشق ١٤٤/١٩، وبغية الطلب٣٩١٤/٩-٣٩١٥، ومعجم البلدان لياقوت ١/ ١٢٦، وشعر الفتوح في فتوح الشام ومصر وإفريقية، أ/عبدالمتعال القاضي، ص١٤١-١٤٢، مكتبة الثقافة الدينية سنة ٢٠٠٥م. وأجنادين: موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين، كانت بها وقعة مشهورة بين المسلمين والروم. وسنير: جبل بين حمص وبعلبك. ويروى عجز البيت الأخير: عن الشام أدنى ما هناك شطير.

(٢) خزانة الأدب للغدادي٣٢١/٦.

(٣) تاريخ الطبري١٩١/٥-١٩٢، ومعجم البلدان٢٧٤/٤..

(٤) لسان العرب(أ/ي/ل)، ومعجم البلدان٢٩٣/١..

(٥) لسان العرب(أ/ي/ل)، ومعجم البلدان٢٩٣/١..

وقول الشاعر نصر بن سيار الكناني:

وبيـت خليفـة الـرحمنِ فينـا ∴ وبيتـاه: المُقَدَّسُ والحـرامُ[١]

وورد أن اسمها الوادي المقدس في قول الشاعر عدي بن الرقاع العاملي:

علـى منبـرِ الـوادي المُقدَّس كلّـه ∴ يروحُ بقول ثابتِ المُتَكَلِّمِ[٢]

وأشار قيس بن الملوح العامري إلى المكانة الدينية للقدس في قوله:

أحـنُّ إليهـا كلمـا ذرَّ شـارقٌ ∴ كحبِّ النصارى قدْسَ عيسى بن مريما

فـوالله ثـم اللهِ إنـي لَصـادقٌ ∴ لَـذِكْرُك فـي قلبـي أجـلَّ وأعظمـا[٣]

وإن الارتباط العاطفي بين القدس والشعر العربي قديم متجذر الأصول، فقد أورد ياقوت الحموي قول الشاعر القديم عن القدس:

أهيمُ بقاع القدس ما هبَّت الصَّبا ∴ فتلك ربوعُ الأنس في زمنِ الصِّبا

وما زلتُ في شوقي إليها مُواصِلا ∴ سلامي على تلك المعاهدِ والربا[٤]

فمفردات البيتين وتراكيبهما ناطقة بمدى حب هذا الشاعر للقدس، فهو يولع حبا وشغفا بالقدس، وولوعه ليس محددا بوقت، بل إن هيامه وشوقه إليها مستمر متواصل، وهو لذلك يرجو لها سلامًا ثابتًا مستقرًّا؛ لأنها موطن أنسه، ومعهد خيره وسعادته، وزمن هذه المشاعر الصادقة هو الحال المستمر الدائم. ووجد هذا الدور الإعلامي وتحقق بجلاء في الشعر الذي أبدع في عصر الحروب الصليبية. لا سيما فيما يخص قضية القدس! وقد سمي هذا الشعر بـ(القدسيات)، أي القصائد التي تسابق الشعراء في إبداعها، وتناولوا فيها القدس مكانًا ومكانة، وعبروا عن

---

(١) تاريخ الأمم والملوك سنة ١٢٠ ٢٥٩/٨، طبع سنة ١٩٠٨م، والشعر العربي بخراسان في العصر الأموي ص١٣٠، د/ حسين عطوان، طبع سنة ١٩٧٤م..

(٢) ديوان عدي بن الرقاع ص ١٣٤، وراجع كتاب الأثر الحضاري في شعر عدي بن الرقاع، د/علي أبوزيد، طبع سنة ٢٠٠٠م.

(٣) ديوان قيس بن الملوح ص٨٧، تح/د/يسري عبدالغني، دار الكتب العلمية، سنة ٢٠١٢م..

(٤) معجم البلدان ١٧١/١ .

الحنين إليها ودعوا إلى تحريرها. وقد شكلت حافزًا مهمًّا وتعبئة عاطفية للشعب من أجل العمل على تحرير القدس والوفاء لها بشتى الوسائل. ومن الشعراء الذين زامنوا صلاح الدين الأيوبي في حروبه الشاعر عبد المنعم الجِلْيَاني الأندلسي(٥٣١- ٦٠٣هـ)، وله قصائد قبل فتح بيت المقدس يستحثه فيها على فتحه، وتسمى (المُبَشِّرات)، وأخرى بعد الفتح وتسمى (القُدسيات)، يقول في مطلع ديوانه (المبشرات والقدسيات): "لم أزل أتابع ذكر غزواته – أي غزوات صلاح الدين، وقرائن أحواله بأصناف المنظوم، والمدبج، والمسجوع، ثم توالت حروبه وفتوحه في الساحل، فعبرت عنها بالقصائد القدسيات، وأودعتها من عجائب الأوصاف والأمثال، وغرائب البلاغة ...."[(١)]. ومن ذلك قوله سنة ٥٨٢هـ وحضر بها بين يدي صلاح الدين:

اللهُ أكبرُ أرضُ القدسِ قد صَفِرَتْ ∴ من آلِ الاصفرِ إذْ حينٌ به حانوا

أسباطُ يوسفَ مِنْ مصرٍ أتوْا وَلَهمْ ∴ من غيرِ تيهٍ بها سلوى وأمنانُ

لـه فلسطينُ إن يخرجْ عداتُهمُ ∴ عنها وإلا عُدَّتْ بِيضٌ وخُرصانُ

حتى بنيتَ رِتاج القدسِ مُنفرجًا ∴ ويصعد الصخرةَ الغرَّاءَ عُثمانُ[(٢)]

واستقبل الناصر المحراب يعبد مَن ∴ قد تمَّ من وعدِه فتح وإمكانُ

وظل حال الشعر التراثي مع القدس على هذا النهج الإيجابي حتى تحررت تمامًا، وتم حصد الفئة الصليبية الباغية [وكان ذلك في عام ٥٨٣هـ]، ثم إنه في سنة خمس وعشرين وستمائة للهجرة استولى الفرنج على القدس صلحا، ثم أخرجهم منه عنوة الملك الناصر صلاح الدين داود بن المعظم شرف الدين عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، أحد أحفاد الناصر صلاح الدين الأيوبي، فقال جمال

(١) المبشرات والقدسيات ص٦٤، وص١٥٢، تح/ عبدالجليل عبدالمهدي، طبع دار البشير سنة ١٩٨٩م .

(٢) المبشرات والقدسيات ص١٣٤، .

الدين يحيى بن مطروح(ت ٦٤٩هـ) هذه النتفة الشعرية الشفاهية الخطابية التقريرية المباشرة:

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا للكفر مستوطَنا أنْ يبعثَ الله له ناصرا
فناصرٌ طهَّره أولا وناصرٌ طهَّره آخرا[1]

وذلك الشعور المتفائل، وتلك العادة المكرورة، أمر ننتظره في آننا هذا، وهو قادم لا محالة، إن شاء الله تعالى، ولن يتخلف، فإن الله ينصر من ينصره، ويدافع عن المظلومين، لأنه هو القوي العزيز، عز وجل.

وفي المبحثين القادمين، أدلة نصية من الشعر التراثي على الوظيفة الإعلامية لفن الشعر، وعلى أثر الأدب الشفاهية والكتابية في ذلك الفن الإيجابي الملتزم الهادف البناء!

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية لأبي شامة المقدسي(٦٦٥هـ) ٢/٢. ٦، وإتحاف الأخصا بفصل المسجد الأقصى للسيوطي ٢٨٩/١، الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٨٢م.

المبحث الثاني

إعلام الشعر التراثي باحتلال الصليبيين للقدس

احتل الصليبيون بيت المقدس في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقتلوا الكثيرين ونهبوا الذخائر، وكان السبب في سقوط القدس في أيدي هؤلاء العتاة هو اختلاف حكام المسلمين وسلاطينهم، وهذا هو مكمن الضعف في كل عصر ومصر.

وقد صور الشعر ما أحدثه هذا الاحتلال الغاشم، وما أحدثه فيما حوله من مكان وأهل ومقدسات. يروي ابن تغري بردي في وصف هذه الأحداث قول الشاعر:

أحل الكفر بالإسلام ضيما ∴ يطول عليه للدين النحيبُ
فحق ضائع وحمى مباح ∴ وسيف قاطع ودم صبيبُ
وكم من مسلم أمسى سليبا ∴ ومسلمةٍ لها حَرَمٌ سليبُ
وكم من مسجد جعلوه ديرًا ∴ على محرابه نُصِبَ الصليبُ
دم الخنزير فيه لهم خلوق ∴ وتحريق المصاحف فيه طيبُ
أمور لو تأملهن طفل ∴ لطفَّل في عوارضه المَشِيبُ
أتسبى المسلمات بكل ثغر ∴ وعيش المسلمين إذن يطيبُ
أما لله والإسلام حق ∴ يدافع عنه شُبَّانٌ وشِيبُ
فقل لذوي البصائر حيث كانوا: ∴ أجيبوا الله ويحكم أجيبوا[1]

هذا هو حال حزب الباطل أمام الحق، لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، ونحن في هذه الجأرة أمام شعر خطابي شفاهي، تظهر الشفاهية فيه عن طريق الإخبار بالفعل الماضي عن تلك المأساة، وتقديم صور حزينة منها، ثم هذا

(١) النجوم الزاهرة ٥/١٥١.

الاستفهام الإنكاري(أتُسْبَى)، ثم هذا الحث والحض(أما لله...) ثم هذا الأسلوب الأمري الوعظي الناصح(فقل لذوي البصائر...)

يقول الأبيوردي (ت ٥. ٧هـ) في وصف هذه المخازي، من قصيدة ميمية خطابية باكية تدور حول هذا الموضوع، مطلعها:

مزجنا دماء بالدموع السواجم ∴ فلم يبق منا عرضة للمراحمِ

ويظهر فيها هيمنة ضمير الجمع، والغيبة، ثم ينتقل إلى التعجب والاستنكار من حال الأمة تجاه هذه الفاجعة قائلا:

وكيف تنام العين ملء جفونها ∴ على هَفَواتٍ أيقظت كلَّ نائمِ

وإخوانُكم بالشام يُضحي مقيلُهُمْ ∴ ظهورَ المذاكي أو بطونَ القشاعمِ

تسومهُمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ ∴ تجرون ذيل الخفض فعلَ المسالمِ

فكم من دماء قد أبيحت ومن دُمًى ∴ تواري حياءً حسنها بالمعاصمِ

بحيث السيوف البيض محمرَّة الظُّبا ∴ وسمر العوالي دامياتُ اللهاذمِ

وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ∴ تظل لها الولدان شيب القوادمِ[1]

ويقرر ابن الخياط(ت ٥١٧هـ)هذه المعاني في قصيدة له في الغرض نفسه، فيقول:

بنو الشرك لا ينكرون الفسادَ ∴ ولا يعرفون مع الجور قصدا

ولا يردعون عن القتل نفسًا ∴ ولا يتركون من الفتْك جهدا

فكم من فتاة بهم أصبحت ∴ تدق من الخوف نَحْرا وخَدّا

وأم عواتقَ ما إنْ عرفْ ∴ ن حرًّا ولا ذقن في الليل بَردا

---

(١) ديوانه ٢/١٥٦-١٥٧، تحقيق د/عمر الأسعد، مؤسسة الرسالة ط٢ سنة ١٤٠٧هـ. والمذاكي: الخيل. والقشاعم: جمع قشعم، وهو ذكر النسر العظيم، أو المسن من الرجال والنسور، وتسوم: تذيق وتنيل. ودمي: جمع دمية، وهي الصورة الممثلة من العاج ونحوه، يضرب بها المثل في الحسن. والظبا :جمع ظبة، وهي حد السيف أو السنان ونحوهما. والعوالى:جمع عالية، وهي النصف الذي يلي السنان من الرمح، واللهاذم: جمع لهذم، وهو كل شيء قاطع من سنان أو سيف أو ناب.

تكـــاد علـــيهن مـــن خيفـــة ∴ تـذوب وتتلـف حزنًـا ووجـدا[1]

حقا هذا هو حال بني الشرك، في كل زمان ومكان، ضد أهل الإيمان: تقتيل، وتخريب، واغتصاب، وانتهاك، وتهجير، وإذلال، ولكن حسب أهل الحق ربهم، ونعم لهم وكيلا ونصيرا. وهو هنا شعر إخباري مصور، مبالغ في التعبير عن الفاجعة!

<u>ومن الشعر الكتابي في تصوير هذه المآسي والمخازي التي لحقت بالقدس الشريف وأهله على يد الصليبيين القصيدة التي كتبها الشاعر الصالح بن رزيك</u> (ت ٥٥٦هـ) إلى صديقه ورفيقه أسامة بن منقذ(ت ٥٨٤هـ)يعزيه عما حدث بالشام من زلزلة شديدة مؤثرة، هلك بسببها من الخلق من هلك، وقد جعل هذه الزلزلة نتيجة للتهاون في شأن القدس، وللتغاضي عما يحدث به وبأهله. يقول:

كـره الشـام أهلـه فهـو محقـو ∴ قٌ بـأن لا يقـيم فيـه لبيـبُ

إن تجلـت عنـه الحـروب قلـيلا ∴ خلفتهـــا زلازل وخطـــوبُ

رقصـت أرضُـه عشـية غنَّـى الـر ∴ رَعْدُ فـي الجـو والكـريم طـروبُ

وأخذ يعدد آثار هذا الزلزال إلى أن قال متسائلا:

أبـذنب أصـابها قـدر اللـــــ ∴ ـــــهُ فلـلأرض كالأنـام ذنـوبُ

إن ظنـي والظـن مثـل سـهام الـرْ ∴ رَمْيٍ منها المخطي ومنها المصيبُ

أن هـذا لأن غـدت سـاحة القـد ∴ س ومـا للإسـلام فيهـا نصـيبُ

منزل الوحي قبل بعث رسول الْـ ∴ لـه فَهْـو المحجـوج والمحجـوبُ

نزلـت وسـطه الخنـازير والخمْـ ∴ ـر وبـارى النـاقوس فيـه الصـليبُ

لـو رآه المسـيح لـم يـرض فعـلا ∴ ذكـــروا أنـــه لـــه منصـــوبُ

لهف نفسي على ديار من السُّكْـ ∴ ـكَانِ أقوت فليس فيها مجيبُ[2]

---

(١) ديوانه صـ ١٨٤–١٨٥، تح/ خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، لبنان، سنة ١٤١٤هـ.

(٢) كتاب الروضتين لأبي شامة المقدسي ١/١. ٦، طبع دار الجيل، بيروت، لبنان.

ففي هذا الشعر الكتابي نلحظ أثر الكتابة في تعمق الشاعر، واستعانته بالتاريخ في عرض مأساة احتلال القدس، وأثر ذلك في الشام وأهله.

كان هذا هو حال القدس، وكان الناس عنها لاهين، فكان لابد لهم من بلية تذكرهم بتفريطهم. لقد هجم الصليبيون على الشام–والقدس تبع لها حينئذ–وأعملوا السيف في رقاب ألوف الأبرياء، وخربوا المدن، وحولوا المساجد إلى كنائس، وأسروا كثيرا من المسلمين والمسلمات، وعاثوا في الأرض فسادا: ينهبون، وينتهكون ويغتصبون، والمسلمون لا حول لهم ولا قوة ولا قدرة، في شغل فاكهون، وبدنياهم يتلذذون، لاهثين وراء كل كسب مادي دنيوي، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، ناسين أو متناسين روح الأخوة الإسلامية وحقوقها. أمام أهل الكتاب الذين حرفوا وبدلوا حسب أهوائهم، كما قال الصالح في هذه القصيدة:

أبعد الناس عن عبادة رب النْـ ∴ ـنَاسِ قوم إلهُهم مصلوبُ[(١)]

فهم حقا بعيدون عن العبادة الحقة الخالصة، بأفعالهم هذه مع إخوانهم في الإنسانية، ولكن هذا ديدن المتعصبين منهم في كل وقت وحين.

ويدور الزمان دورته فيعود الصليبيون إلى القدس ثانية سنة ٦٢٦هـ محتلين، بعد اتفاق مهين وقعه معهم الملك الكامل سنة ٦٢٥هـ، يقضي بجلاء الفرنجة عن دمياط إزاء ما يتاح لهم من تسهيلات للعودة إلى بيت المقدس[(٢)].

ولكن عبر الشعر عن الرفض الشعبي لهذا الاتفاق، فقال شهاب الدين يوسف بن الحسين بن محمد بن مجاور:

يا صاح قل للإنكتير الكلب دعْ ∴ عنك الجنون وخذ مقالة منصفِ

القدسُ ما فيه لسرجك مطمعٌ ∴ كلا ولا نور الإله بمنطفي

---

(١) السابق ١/١. ٧.

(٢) راجع في ذلك كتاب الروضتين ٢/٢. ٥–٢. ٦، والسلوك لمعرفة الملوك للمقزيري ط١ ق ١ صـ ٢٣١ وما بعدها تحقيق د. مصطفى زيادة، ومقالات في الأدب الإسلامي د. عمر الساريسي صـ ٢١٣–٢١٥، طبع دار الفرقان بالأردن سنة ١٩٩٦م.

والمسجد الأقصى فعنه تقصَّ من ∴ وقـع الـدبابيس الأليمـةِ تعـرفِ

واستفت نفسَك فهي أخبثُ ناصحٍ ∴ واترك متابعة اللجاج المتلفِ[1]

ومن ثم كان ابن الساعاتي محقا حين ذكر أن من فضائل الناصر صلاح الدين هو حفظه للقدس من عودة الصليبيين إليها ثانية قال: أبو الحسن علي ابن الساعاتي(ت٦٠٤هـ) من قبل ذلك مادحا صلاح الدين:

سل عنه قلب الإنكتير فإن في ∴ خفقاته ما شئت من أنبائِهِ

لـولاك أمَّ القـدسَ غيـرَ مـدافعٍ ∴ وأسال سيل نداه في بطحائِهِ

وبكت جفونُ القدس ثانية دَمًا ∴ لترنُّم النـاقوس فـي أفنائِـهِ[2]

فواضح مدى إحساسه بقيمة فتح القدس على يد الناصر –رضي الله عنه– وتعبيره عن كون القدس مقصد الأعداء الأسمى، فهم يريدونها في كل وقت، وكان صلاح الدين واقفًا لهم بالمرصاد، يصد غاراتهم، ويزلزل مخططاتهم، ولكن أحفاد صلاح الدين كانوا على خلاف هذا النهج، فأحدث بعضهم هذا الاتفاق الذي أضاع القدس، فبكى عليها ابن مجاور بقصيدة بليغة طويلة، نلحظ فيها لأول مرة مدى الإحساس بالمكانة المقدسة للقدس.

جاء مطلعها معبرًا عن العاطفة الحزينة الملمة بالشاعر نتيجة هذا الحدث الجلل. يقول:

أَعَيْنَـيَّ لا تَرْقَـىْ مـن العَبَـراتِ ∴ صِلِي في البُكا الآصالَ بالبُكُراتِ

لعل سيولَ الدمع يُطفئ فيضُها ∴ توقُّدَ ما في القلب من جمراتِ

ويا قلب أسعِرْ نارَ وَجْدِكَ كلَّما ∴ خبت بِادِّكارٍ يبعث الحسراتِ

ويا فم بُحْ بالشجو منك لعلَّه ∴ يروِّح ما ألقى من الكرباتِ[3]

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٢. ٤.

(٢) السابق، ذاته.

(٣) السابق ٢/٢. ٥-٢. ٦.

إنه يستثير جوارحه، ويبث فيها شعور الحزن وروح الثورة، وذلك تحسرا وبكاء على فقد أشياء غالية ونفيسة، هي:

على المسجد الأقصى الذي جلَّ قدرُه ∴ على موطن الإخباتِ والصلَوَاتِ
على منزل الأملاك والوحي والهُدى ∴ على مشهدِ الأبدالِ والبَدَلاتِ[1]
على سُلَّم المعراجِ والصخرةِ التي ∴ أنافتْ بما في الأرض من صخَراتِ
على القبلةِ الأولى التي اتجهتْ لها ∴ صلاةُ البرايا في اختلافِ جهاتِ
على خيرِ معمورٍ وأكرمِ عامرٍ ∴ وأشرفِ مبنيٍّ لخيرِ بُناةِ
وما زال فيه للنبيين مَعبدٌ ∴ يوالون في أرجائه السجداتِ

تلك مكانة القدس والمسجد الأقصى ومآثرهما التي تدفع المسلم دفعا على البكاء الصادق من أجلهما ولكن ما الذي حدث بهما؟ وهذا التكرار دليل على النزعة الشفاهية والخطابية المهيمنة على الشاعر ونصه.

يقول ابن مجاور مصورًا حال المسجد الأقصى بعدما احتله الفرنجة، موظفًا تقنية التكرار:

عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الرْ ∴ رَفيعُ العماد العالي الشرُفاتِ
عفا بعدما قد كان للخير موسما ∴ وللبر والإحسان والقرُباتِ
يوافي إليه كلُّ أشعثَ قانتٌ ∴ لمولاه بر دائم الخلَواتِ
خلا من صلاة لا يمل مقيمُها ∴ تُوشَّح بالآيات والسُّوَرَاتِ
خلا من حنين التائبين وحزنِهم ∴ فمِن بين نُوَّاحٍ وبين بكاةِ

حقا خلا من المصلين والتائبين واهتزت صورته التي كانت زاهية، ومن ثم حق لنا البكاء والنحيب بصوت جهير، وحق لنا إعلان الشكوى والحزن في كل البقاع على فقد هذه البقعة الطاهرة. يقول ابن المجاور في ذلك:

(١) الأملاك:جمع مليك، والأبدال والبدلات:من مصطلحات الصوفية، يقصد العباد والزهاد.

لِتبكِ على القدس البلاد بأسرها ∴ وتعلن بالأحزان والترُحاتِ[1]

لِتبكِ عليها مكةٌ فهي أختُها ∴ وتشكو الذي لاقت إلى عرفاتِ

لِتبكِ على ما حلَّ بالقدس طَيْبةٌ ∴ وتشرحه في أكرم الحجُراتِ

هذا ما يجب على كل بلد تردد فيه شهادة التوحيد، التأثر لما حدث بالقدس، والحزن لما أحدثه بها المعتدون، والبكاء على ماضيها الزاهر المشرق في عهد الناصر صلاح الدين، لقد فعلوا بها الأفاعيل، يقول:

لقد أشمتوا عكا وصُورَ بهدمها ∴ ويا طالما غادتهما بشماتِ

لقد شتتوا عنها جماعةَ أهلها ∴ وكلُّ اجتماعٍ مُؤذِنٌ بشتاتِ

وقد هدَّموا مجد الصلاح بهدمها ∴ وقد كان مجدًا باذخ الغُرُفاتِ

وقد أخمدوا صوتًا وصيتًا أثاره ∴ لهم عُظْمُ ما وَالَوْا من الغزواتِ

أما علمت أبناء أيوب أنهم ∴ بمسعاته عُدُّوا من السرواتِ[2]

وأن افتتاح القدس زهرة ملكهم ∴ وهل ثَمَرٌ إلا من الزهراتِ

لقد أجاد الشاعر هنا، إذ ذكر بني أيوب بسبب عزهم ومنبع فخرهم، ألا وهو ارتباطهم بالقدس والصلة الوثيقة بينهما، لقد طهرها صلاح الدين من رجس المحتلين، وبنى بذلك لها ولبني أيوب مجدا مؤثرا على مدى التاريخ، ما كان ينبغي لأحفاده–بعد أربعين عاما من التحرير–أن يفرطوا فيها، ويمسحوا تلك الصورة الزاهية التي سطرتها جهود الناصر، فالوصول إلى القمة سهل لكن الحفاظ عليها صعب، فما بالك بالتفريط فيها، إنه مر علقم، يستدعي البكاء، ويوجب الحزن، يقول:

فمن لي بنُوَّاحٍ يَنُحْنَ على الذي ∴ شجاني بأصوات لهن شُجاةِ

يردِّدْنَ بيتا للخزاعيِّ قاله ∴ يؤَبِّنُ فيه خِيرةَ الخَيَراتِ:

---

(١) الترحات: جمع ترحة وهي الحزن الشديد.

(٢) السروات: جمع الجمع للسراة وهم كبار القوم ومشاهيرهم.

"مـدارسُ آيـاتٍ خلَـتْ مـن تـلاوةٍ ∴ ومنـزلُ وحـيٍ مقفرُ العرَصـاتِ"[١]

إنه تعب من الحزن وضج من البكاء، فيستدعي نساء ليقمن حفلة ندب ولطم وبكاء، وليساعدنه على حزنه العميق، كما يستدعي بيتًا شعريًّا سيَّارًا في رثاء بيت الخلافة الإسلامية، وبيت النبوة من آل علي، على يد العباسيين، للشاعر الشيعي دعبل بن علي الخزاعي(ت ٢٤٦هـ).

وهكذا نجد ابن المجاور يبكي القدس بكاءً صادقًا، ويرثيها رثاءً حارًّا مُلتاعًا متفجعًا، يُعدد الآثار المقدسة الماضية، ويصور الأهوال السيئة الحاضرة، ثم يستبكي عليه البلاد والناس جميعا، ثم يظهر الجزع الشديد الذي ألم به من عودة الفرنجة الصليبيين إلى هذا المكان المقدس الطاهر، بعدما كان محررا مطهرا على يد بني أيوب، أولئك الذين:

هـمُ نصروا التوحيد نصرًا مـؤزرًا ∴ بـه عـزَّ فـي الآفـاق كـلُّ موحِّـدِ

وهـمْ قهروا غُلْبَ الفِرنجِ ببأسـهم ∴ فـدانوا لهـم بـالرغم لا عـن تـوددِ

وردُّوا إلـى البيـت المُقـدَّسِ نُـورَه ∴ وقد كان في ليلٍ من الشرك أسودِ[٢]

فهذا ما يقوله التاريخ. أخذوا على عاتقهم منذ وجودهم تحرير بيت المقدس والحفاظ عليه مطهرًا ومشرفًا وممجِّدًا.

لقد وصف الشعراء ما حل بالقدس وبكوها ورثوها، متذكرين مكانتها الإسلامية، وماضيها في تاريخ الرسالات السماوية، متفجعين ومتحسرين، وواصفين ما ألم بها من انتهاكات واغتصابات وتقتيل وتشريد وإذلال وهوان.

إن شعراء فترة الحروب الصليبية كانوا من ذلك الفريق الذي "يعايش الواقع الاجتماعي معايشة واقعية راصدة لما في ذلك الواقع، متمردة على التفكير المثالي،

---

(١) السابق ٢/٢. ٦–وراجع بيت الخزاعي في ديوانه صـ ١٣١، تحقيق د. عبد الصاحب عمران الدخيلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط١ سنة ١٩٧٢م.

(٢) من شعر مجد الدين بن الظهير الإربلى في مدح بعض ذرية الناصر صلاح الدين. كتاب الروضتين ١٩٦/١.

واصفة حركة الحياة بكل متناقضاتها. وهذا الفريق لا يحلم بالمثالب، ولكن يقتحم، ويفجر مناطق السكون في الواقع، وهؤلاء هم الواقعيون الذين يرون في تصوير الشر وتجسيم القبيح تبصيرا للناس به، ومن ثم يحذرون الوقوع فيه. ويؤكد هذا المنحى ما ذهب إليه بودلير في قوله: "ادرس جميع الجراح كطبيب يمارس مهنته في دار المرضى"(١)، ولكن هل وقف شعراء هذا العهد عند الوصف الواقعي الراصد للمأساة والمصور لمقابحها فقط ؟!.

كلا، فذلك دور سلبي يقف عند الولولة والنحيب، ويكون فاشلا غير مؤثر في التعامل مع النيران المشتعلة والسيوف البتارة.

أما الدور الإيجابي الفعال، فهو الحث على التحرير والفتح، والحض على الجهاد والكفاح والمواجهة الصريحة للأعداء المحتلين الغاصبين، وهذا ما لحظه وعبر عنه كثير من شعراء هذا العهد على النحو الآتي:

(١) من مقال (آفاق الرؤية الشعرية في شعر هاشم الرفاعي) للأستاذ الدكتورصابر عبد الدايم، في مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد الحادي والعشرون صـ ١٤٧، طبع مركز آيات للطباعة والكمبيوتر سنة ١٤٢١هـ=٢٠٠١م.

المبحث الثالث

دعوة الشعر التراثي إلى ضرورة تحرير القدس

نظرًا لهذه المكانة المعظمة للقدس في نفوس الناس شعراء وغير شعراء، وجدنا الشعراء يستثيرون حمية المسلمين ويدعونهم للنهوض دفاعا عن حرماتهم المنتهكة وأعراضهم التي استباحها الصليبيون في غير رحمة ولا لين، ويحرضهم على الجهاد في سبيل الذود عن حياضهم وديارهم ويحمسهم للقيام بنصرة دينهم.

"وقد ظهر في خلال الحروب الصليبية كثير من الشخصيات الإسلامية التي استحقت لقب البطولة، والتي خلدها التاريخ لما أظهرته من مواهب ممتازة في قيادة الجيوش وإدارة رحى المعارك، ولما بذلته من جهود كبيرة في سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين. ومن هؤلاء العظماء عماد الدين زنكي ونور الدين، وصلاح الدين، والملك الكامل، والملك المعظم تورنشاه وغيرهم.

وقد نزل هؤلاء منزلة حب عالية في قلوب الناس فأحبهم المسلمون وجعلوهم مواطن آمالهم ومعاقد رجائهم، فهم حماة الإسلام والمسلمين، وقاهرو الصلبان والصليبيين، وهم الذين صانوا أعراض المسلمين من أن تباح علي أيدي الكافرين، وأعزوا المسلمين بعد أن أذلوا الغزاة المعتدين، وقد ظهروا والمسلمون في يأس وقنوط، والإسلام في خطر الزوال، والمساجد أضحت كنائس، فقادوا المسلمين من نصر إلي نصر"[(١)]، فهذا ابن القيسراني يقول في سنة ٥٤١هـ يهنئ وزير الموصل الوزير جمال الدين أبا جعفر محمد بن علي (ت ٥٥٩هـ) باستعادة نور الدين زنكي مدينة الرُّها، ونراه فيها يهيب به أن يسعى ليحرر الأقصى:

(١) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي، أ/محمد سيد كيلاني ص ٢٩٣، طبع دار الفرجاني سنة ١٩٨٤م.

أمـــا آن أن يزهـــق الباطـــلُ وأن يُنجـــزَ العِـــدةَ الماطـــلُ
إلـى كـمْ يُغِـبُّ ملـوكَ الضـلا لِ ســـيفٌ بأعناقِهـــا كافـــلُ
فـلا تحفلـنْ بصـولِ الـذئابِ وقـــد زأرَ الأســـدُ الباســـلُ
وهـل يمنـع الـدينَ إلا فتًـى يصـــولُ انتقامًـــا فيستأصـــلُ

وبعد هذا الاستهلال الاستنجازي الاستبطائي ينتقل إلى مدح نور الدين وتهنئته، ثم يقول محرضا على الجهاد:

وجاهـد فـي الله حـق الجهـا د محتســـبٌ بـــالعلى قافـــلُ
وهـل يُمْنَـعُ السـورُ مـن طـالعٍ يشـــايعه القـــدرُ النـــازلُ
فـإن يـكُ فـتح الرهـا لُجَّـةً فسـاحلُها القـدس والسـاحلُ[1]

ويسير ابن القيسراني السير نفسه مع نور الدين محمود زنكي بن عماد الدين، فيهنئه بالانتصار على صاحب أنطاكية عام ٥٤٤هـ، ثم ينتقل إلى غرض الحث على فتح القدس قائلا:

كنـــا نعـــد حمـــى أطرافنـــا ظفَـــرًا فملكتـك الظُّبَـى مـا لـيس يُحْتَسَـبُ
عمـــت فتوحُـــك بالعـــدوى معاقلَهـــا كـــأن تسـليم هـذا عنـد ذا جـربُ
لـم يبـق مـنهم سـوى نـبضٍ بـلا رمَـقٍ كمـا التـوى بعـد رأسِ الحيـةِ الـذنَبُ
فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لَجِبٍ يُوليك أقصى المُنـى فالقدسُ مرتقبُ
وائـذَنْ لموجـك فـي تطهيـر سـاحله فإنمـا أنـت بحـرٌ لُجُّـهُ لَجَـبُ[2]

وإن كان تصويره لكثرة الفتوح جاء معيبا لقصر المشبه به عن المشبه في الجامع بينهما، ولما في المشبه به من إيحاء بما ينفر من قيمة المشبه. أما الصورة في البيتين الأخيرين فهي جميلة معبرة عن المعنى المراد، وإن كان المعنى مكرورا،

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ٤٩/١. ولابن المنير شعر في المعنى نفسه. الروضتين ٤/١.

(٢) الروضتين ٥٩/١. والظبى: جمع ظبة، وهي حد السيف ونحوه.

ليس فيه عمق أو كثرة تركيب في أجزاء التصوير. ولابن القيسراني مدائح أخرى في نور الدين يردد فيها مجده وانتصاره الحربيين، ضد حملة الصليب، وما يأمله على يديه من رد بيت المقدس والساحل الشامي على أصحابهما المسلمين، ودائما ما يحوطه بهالة إسلامية هو جدير بها، فقد كان يحارب في سبيل الله لا يبتغي مغنما، إنما يبتغي ما عند الله من الأجر والثواب، حتى ليقول له ابن القيسراني في نفس هذه القصيدة السالفة:

إلا تكن أحد الأبدال في فلك التْـ تقوى فلا نتمارى أنك القُطُبُ

وكأنه يعده قطب تقوى وإنقاذ الشام وأهل الشام"[١] . وهذا العماد الأصفهاني يقول مادحا نور الدين ويهنئه بملك مصر:

اغزُ الفرنج فهذا وقتُ غَزْوهِمِ واحْطِمْ جموعهمُ بالذابل الحَطِمِ

وطهِّرِ القدْسَ مِن رجسِ الصليبِ وثِبْ على البُغاثِ وثوب الأجدل القَطِمِ

فمُلكُ مصرَ ومُلكُ الشامِ قد نُظِما في عِقْدِ عِزٍّ من الإسلام منتظمِ[٢]

فقد أحس العماد بأن نور الدين قد أتم توحيد المسلمين بتملكه مصر والشام، ومن ثم فهذا هو الوقت الذي يسمى الآن في لغة الحرب بساعة الصفر، أي وقت دخول الحرب بكل قوة واستقرار، فما بعد الاتحاد إلا القوة، والقوة عدة النصر. ولكن لم يكتب الله للعماد أن يتحقق هذا الحلم العظيم على يده، بل كان تحققه على يد نجله ذلكم القائد العظيم نور الدين محمود، ذي الرأي الثاقب، والعقل الرصين والإرادة الماضية[٣]، والذي توفي في سنة ٥٦٩هـ، فتأثر بذلك العماد تأثرا صادقا فرثاه بمرثية طويلة، كان منها قوله:

---

(١) عصر الدول والإمارات، الشام، صـ ٦٣٩، د/شوقي ضيف، دار المعارف.

(٢) كتاب الروضتين ١/١٧٥، والذابل الحطم: الرمح القاهر. والأجدل القطم:الصقر المفترس. وللعماد وابن المنير أشعار أخرى في هذا المعنى بالروضتين٧/٥٧، ١٥.، ١٦.

(٣) راجع مقال الدكتور عماد الدين خليل بعنوان" نور الدين محمود الطريق إلى فلسطين، مجلة العربي عدد جمادى الأولى لسنة ١٣٩٩هـ.

أزهــدتَ فــي دارِ الفنــاءِ وأهلِهــا ورغبتَ فـي الخُلْدِ المُقيمِ وحُورِهِ
أو مـا وعـدتَ القـدسَ أنَّـكَ مُنجِـزٌ ميعــاده فــي فتحِــه وظهــورِه
فمتى تجيرُ القدسَ من دنَسِ العِدى وتُقَدِّسُ الـرحمنَ فـي تطهيـرِه(١)

فهذه الاستفهامات ليست عتابية أو استبطائية، بل هي تذكير بالنية الصادقة التي كانت في أقوال هذا السلطان وأفعاله، فقد كانت غايته الكبرى هي تحرير القدس وتطهيرها من دنس الصليبيين وفسادهم، وهذا ما عبر عنه ابن القيسراني بقوله:

فسِرْ واملأ الدنيا ضياءً وبهجةً فبالأفق الداني إلى ذا السنا فَقْرُ
كأني بهذا العزمِ لا فُلَّ حَدُّهُ وأقصاه بالأقصى وقد قُضِيَ الأمرُ
وقد أصبح البيتُ المُقَدَّسُ طاهرًا وليس سوى جاري الدماء له طهرُ
وقد أدت البِيضُ الحِدادُ فروضَها فلا عُهْدَةٌ في عُنْقِ سيف ولا نذرُ
وصَلَّتْ بمعراج النبيِّ صوارمٌ مساجدها شَفْعٌ وساجدها وَتْرُ(٢)

فعزم نور الدين، ومقصده من كفاحه وجهاده إنما هو الوصول إلى بيت المقدس لتحريره وتطهيره. والنص ناطق بذلك، ومعبر عن أن تحرير القدس حلم يراود الشاعر ويدور بخلده ويسير على لسانه في كل موقف ومناسبة. حلم عند كل شعراء هذا العهد، فالجميع متشوق لتحريرها وحاضٌّ على تخليصها، ومن الشعر الكتابي المحرض على تحرير القدس القصيدة التي كتبها الصالح بن رزيك إلى أسامة بن منقذ:

أبلغَنْ قولنا إلى الملك العا دِلِ فهْو المرجوُّ والمأمولُ
قل له: كمْ تماطل الدَّيْن في الكفْـ ـفَارِ فاحذرْ أنْ يغضبَ الممطولُ
سِرْ إلى القدسِ واحتسبْ ذاك في اللـ ـه فبالسَّيْرِ منك يُشفَى الغليلُ

(١) كتاب الروضتين ١/٢٤٥.
(٢) السابق ١/٧٣.

وإذا مـــا أبطـــا مســـيرك فاللـــــــهُ إذن حسبنا ونعم الوكيلُ[١]

فهذه الأبيات ناطقة بأن التحرير مطلب شعبي، لأن الصليبيين شوكة دامية في القدس يجب القضاء عليها، حتى يكون للإسلام وأهله استقرار وعزة ووجود واقعي وحضاري في تلك البقعة التي بارك الله حولها. وأثر الكتابة وأن هذه القصيدة رسالة يتضح من قول الشاعر في بدايتها(أبلغن قولنا...) فقد دلت على أنها رسالة، فيها مرسل ومرسل إليه ومضمون خاص يريد الشاعر إيصاله.

ويأتي الحث على الجهاد بصيغة عامة غير موجهة إلى ملك معين، في قول ابن الخياط:

إلى كمْ وقد ذُخرَ المشركونَ بسيلٍ يُهالُ لـه السيلُ مَدَّا
وقد جاش من أرض إفرنجة جيوشٌ كمِثلِ جبالٍ تَرَدَّا
تُراخُون مَن يَجْتري شِدَّةً وتنسوْنَ مَن يَجعلُ الحربَ نَقْدا
أنومًا على مِثلِ هدِّ الصَّفاةِ وهزلاً وقد أصبح الأمرُ جِدَّا
وكيف تنامون عن أعينٍ وُتِرْتُم فأسرتموهنَّ حِقْدا
وشرُّ الضغائنِ ما أقبلتْ لديه الضغائنُ بالكفرِ تُحْدا
بنو الشركِ لا يُنكرونَ الفسادَ ولا يعرفون مع الجَوْرِ قَصْدا[٢]

فابن الخياط صور في هذه المقطوعة الحالة النفسية للمسلمين، وأرسل التحريض ممزوجا بالبكاء على ما أصاب المسلمين من بطش الصليبيين، ويلاحظ أن الشاعر لم يذكر بيت المقدس، ولم يحرض على تخليصه، كما فعل غيره من الشعراء فيما بعد، كما أنه لم يذكر الدفاع عن الإسلام والمسلمين. وهذا أمر طبيعي. فقد كان المسلمون منقسمين إلى شيع وطوائف ودويلات صغيرة لا رابطة بينها ولا صلة. والشاعر هنا يحرض أميرا صغيرا، لذلك لم يكن من المعقول أن

(١) كتاب الروضتين ١/١١٩.

(٢) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي صـ ٣. ٢، وراجع عصر الدول والإمارات الشام صـ ٦٣٦ . د. شوقي ضيف، دار المعارف.

يكلفه الدفاع عن المسلمين أو تخليص المسجد الأقصى، أو غير ذلك مما لا يتحقق إلا بقيام المسلمين متحدين مزودين بالعدد الكثير والعدة الوفيرة"[1] فهذا هو سبب تعميم التوبيخ والإنكار وتوجيهه للجميع. والنهج نفسه كان عند الأبيوردي، في قصيدته الشفوية الخطابية الباكية في مقدمتها، حيث يقول محرضًا بني الإسلام جميعًا:

وشرُّ سلاحِ المرءِ دمعٌ يُفيضُه ... إذا الحربُ شُبَّتْ نارَها بالصوارمِ
فإيْهَا بني الإسلامَ إنَّ وراءَكم ... وقائعَ يُلحقْنَ الذُّرَى بالمناسمَ
أَتَهْويمةٌ في ظلِّ أمنٍ وغِبْطةٍ ... وعيشٍ كنُوَّار الخميلةِ ناعمِ
وكيف تنامُ العينُ مِلْءَ جُفونِها ... على هفَواتٍ أيقظتْ كلَّ نائمِ
وإخوانُكم بالشام يضحى مقيلُهم ... ظهورَ المذاكي أو بطونَ القشاعمِ
تسومهمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ ... تجرُّون ذيلَ الخفضِ فعلَ المُسالمِ
وكمْ من دماءٍ قد أُبيحَتْ ومِنْ دُمًى ... تُوارى حياءً حسنَها بالمعاصمِ
أرى أمتي لا يُشرِعون إلى العِدَى ... رماحُهمُ والدينُ واهي الدعائمِ
ويجتنبونَ النارَ خوفًا من الرَّدَى ... ولا يَحسبَونَ العارَ ضربةَ لازمِ
أتَرْضَى صناديدُ الأعاريبِ بالأذى ... ويُغضي على ذلٍّ كُماةُ الأعاجمِ
فليتهمْ إنْ لمْ يَذُودوا حَمِيَّةً ... عن الدينِ ضنُّوا غَيْرَةً بالمحارمِ[2]

فواضح لغة الجهاد، وأساليب التحريض، وأدوات التقريع والتأنيب للمتشاغلين اللاهين، المنصرفين عن هم الأمة الأكبر، والعظيم، ألا وهو القدس.

ولما فتحت مصر سنة ٥٦٢هـ على يد أسد الدين شيركوه، قال العماد الأصفهاني قصيدة هنأه بهذا الفتح، كان منها قوله:

---

(١) السابق.

(٢) ديوان الأبيوردي ١٥٦/٢-١٥٧، تحقيق: د.عمر الأسعد، مؤسسة الرسالة ط، سنة ١٤١٧هـ. والقصيدة في الكامل لابن الأثير ٢٨٤/١-٢٨٦، وفي النجوم الزاهرة ١٥١/٥، وفي البداية والنهاية ١٥٦/١١-١٥٧.

فتحتَ مصرَ وأرجو أن تصيرَ بها ... ميسرًا فتحَ بيتِ المقدسِ عن كثبِ
قد أمكنت أسدَ الدين الفريسةُ من ... فتح البلاد فبادر نحوها وثُبِ
أنت الذي هو فردٌ من بسالته ... والدينُ من عزمِه في جَحْفلٍ لَجِبِ
وما غضبتَ لدين الله منتقمًا ... إلا لنيل رضا الرحمنِ بالغضبِ
وأنت مَن وقعت في الكفر هيبتُه ... وفي ذويه وقوع النار في الحطبِ
وحين سِرْتَ إلى الكفار فانهزموا ... نُصِرْتَ نصرَ رسول الله بالرُّعُبِ[1]

لقد رأى العماد في شخصية قائده الفاتح سيما المنقذ وسمات المخلص، حيث الإخلاص والشجاعة والقوة، فما كان من العماد إلا أن وجه إليه رغبته المستكنة المستمرة، وهي تحرير القدس مما هي فيه.

ثم كان عهد صلاح الدين الأيوبي –رحمه الله تعالى– فكثرت الأشعار التي تستنهضه وتستعديه على الصليبيين. لقد "كثر إلحاح الشعراء وتحريضهم على القتال والنزال وتطهير بيت المقدس من رجس الكفار وتخليص المسجد الأقصى من عبدة الصلبان. ولو أنك ألقيت نظرة على القصائد التي قيلت في مدح صلاح الدين وتهنئته بانتصاراته التي أحرزها على الصليبيين، لوجدت كل قصيدة فيها تنتهي بالتحريض على السير إلى بيت المقدس وتطهيره من أدناس الكفار وأرجاسهم، وإعادته إلى حظيرة الإسلام، ولا عجب في ذلك، فقد كان المسلمون يتحرقون شوقا إلى تخليص المسجد الأقصى موضع الإسراء الذي بارك الله حوله. ومثال ذلك قول أحد الشعراء على لسان القدس:

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نَكَّسْ
جاءت إليك ظُلامةٌ ... تسعى من البيتِ المُقدَّسْ
كلُّ المساجدِ طُهِّرَتْ ... وأنا –على شرَفي– مُنجَّسْ[2]

---

(١) كتاب الروضتين ١/١٦.

(٢) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي صـ ٣. ٤–٣. ٥.

فقد استعان هذا الشاعر بالتصوير الفني الاستعاري المُفارِق، والصادم عن طريق محسن بديعي هو المقابلة، في التعبير عن قضية القدس، والآلام والمآسي التي تعيشها تحت نير الاحتلال الصليبي الحاقد البغيض، وعلى هذا المعنى، وبعاطفة صادقة مخلصة، سارت الشعراء في تناول القضية. خصوصا العماد الأصفهاني، الذي يقول في مدح صلاح الدين الأيوبي:

نُهوضًا إلى القدسِ يُشفَ العليلُ ... بفتح الفتوح وما ذا عسيرُ
سل الله تسهيل صعب الخطو ... ب فهْو على كل شيء قديرُ
إليك هجرتُ ملوك الزمانِ ... فما لكَ والله فيهم نظيرُ
وفجرك فيه القرى والقُرَانُ ... جميعا وفجرُ الجميع الفجورُ
وأنت تريق دماء الفرنج ... وعندهم لا تراق الخمورُ[1]

ويخاطبه بضمير الجماعة تعظيما له وتقديرا لجهوده، يقول:

وما يرتوي الإسلام حتى تغادروا ... لكم من دماء الغادرين بها غُدْرا
فصبوا على الإفرنج سوطَ عذابها ... بأن تقسموا ما بينها القتل والأسرا
ولا تهملوا البيت المقدس واعزموا ... على فتحه غازين وافترعوا البكرا
تديمون بالمعروف طيِّبَ ذكركم ... وما الملك إلا أن تديموا لكم ذكرا[2]

وعند العماد فتح القدس هو فتح الفتوح، ونبع عزة الإسلام، يقول في صلاح الدين رضي الله عنه:

أسدى صلاح الدين والدنيا يدًا ... بنوالها سوق الرجاء تقامُ
فَتَمَلَّ فتحك واقصد الفتح الذي ... بحصوله لفتوحك الإتمامُ
دم للعلى حتى يدوم نظامها ... واسلم يعزّ بنصرك الإسلامُ[3]

---

(١) كتاب الروضتين ٢٤٧/١.

(٢) السابق ١٧٨/١.

(٣) السابق ٢٤٧/١. والنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لبهاء الدين بن شداد ٣٢/١.

وقد كان صلاح الدين عند حسن ظن العماد ومعاصريه، فحقق غايتهم، وأجاب مرادهم، فقد عاش في بيئة الكفاح والجهاد من أجل مواجهة الغارات الخارجية على الإسلام، حتى بدت منه أمارات السعادة، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة، وقدمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي– رحمه الله– وعول عليه ونظر إليه وقربه وخصصه، ولم يزل كلما تقدم تقدمًا يبدو منه أسباب تقتضي تقديمه إلى ما هو أعلى منه حتى بدا لعمه أسد الدين رحمه الله الحركة إلى مصر المحروسة وذهابه إليها. وكانت هذه الرعاية من نور الدين سببًا في هذا النصر التاريخي لصلاح الدين، ولو علم ماذا ادخر الله للإسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرت عينه، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمهما، رحمهما الله تعالى. وحق لعين نور الدين أن تقر بعد هذا الفتح، فقد كان لا يرى إلا الجد في غزو الفرنج بجهده وطاقته(١).

وهذا الإحساس الواضح من الشعراء بحال القدس إبان الاحتلال الصليبي أمر يتناسب مع فطرة الله التي فطر الناس عليها، فقد فطر الإنسان "على أن يدافع عن نفسه، ويذود عنها ما يوجه نحوها من كيد وعدوان، وبغي وطغيان، وظلم وبهتان، فإذا عجزت قواه ووسائله المادية عن أن يرد الخطر ويصد العدوان، وشعر بعدم قدرته على الكفاح والنضال، لم يجد بدا من اللجوء إلى الله فيدعوه علانية وسرا، ويلح في الدعاء والتضرع والاستغاثة، ويسأله أن يدفع عنه الخطب ويزيل الكرب ويذهب الغم والهم، ويكشف البلاء ما يعلم وما لا يعلم"٢ولذا وجدت قصائد طويلة كثيرة في نتاج شعراء هذا العهد، تدور حول هذا المعنى، منها قصيدة "دعاء

(١) راجع السابق ٢٢٨/١، ٢١٨/٢، ومقالات في الأدب الإسلامي صـ ٢.، د.عمر عبد الرحمن الساريسي، ط١ سنة١٤١٧–١٩٩٦م، طبع الأردن، والطريق إلى بيت المقدس ٧/١. وما بعدها، د. جمال عبدالهادي محمد مسعود، دار الوفاء سنة ٢٠٠٥م.

(٢) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي صـ ٣. ٨.

المنفرجة" للإمام أبي حامد الغزالي(ت ٥. ٥هـ)، وقصيدة "المنفرجة" لأبي الفضل يوسف بن محمد التوزي المعروف بابن النحوي(ت ٥١٣هـ) وغيرهما[١].

وهذه طبيعة المؤمن وسجيته في كل حال، وفي كل زمان ومكان، يستغيث بربه ويتوسل إليه أن يكشف الكرب، ويلحق بأعداء الدين الهزائم ويذيقهم الذل والخسف والهوان، ويجعلهم هم وأموالهم غنيمة وطعاما سائغا لحزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون الغالبون. فلسان حال جميع المسلمين في كل عصر ومصر، يقول:

إلهي قد مللنا الذل دوما ... وطال الضعف والعجز الصُّراحُ
فبعد ظهورنا في الكون دهرا ... أداروا الظهر وانكسر الجناحُ
أزالوا السيف من يدنا اغتصابا ... وصار سلاحنا حجرا يطاحُ
فمعذرة إلهي أنت عون ... على شر له غدر بواحُ
فأنقذنا بفتح مستقر ... يليه مجد نصر واكتساحُ
ويبدلنا من الإذلال عزا ... ففي هذا حياة وانفتاحُ
إلهي يا مجيبا كن مغيثا ... فقد ناداك أهلونا السِّماحُ
وهم أتقى وأهدى من يهود ... وهم متطهرون وهم صِحاحُ[٢]

*****

وهكذا يتبين لنا من خلال هذه الأشعار الحارة الثائرة أن القدس كانت قضية الشعراء والناس في هذا العهد، لم يتركوا أملاً إلا طرقوه، شخصًا كان أو حدثًا، وهذا هو الدور الإيجابي المطلوب من الشعر في مثل هذه الظروف، وهو يدل على الوظيفة الإعلامية للشعر؛ فالشعر كان "أحد أدوات الحرب الذي يشعل فتيلها، ويذكي سعيرها، ويحمي وطيسها، بل لعلنا لا نغلو إذا قلنا: إنه كان أنفذ

(١) راجع هذه القصائد في المصدر السابق صـ ٣. ٨-٣١٥.

(٢) من قصيدة (ولاة وشعوب) للباحث، بتاريخ٣/١٠/٢٠٠٠م، وهي منشورة في ديوانهاالإلكتروني (أشجان وأحزان)، وفي موقع الوراق بتاريخ٢٣/٢/٢٠١١م.

أدواتها، وأمضى أسلحتها، وأبقاها أثرا في نفوس العرب، لأن العرب–كما نعلم–قوم عاطفيون، تلعب العاطفة دورا خطيرا في حياتهم، وما الشعر الجهادي الحماسي الذي تبعثه الانفعالات النفسية، وتزجية الأحاسيس الذاتية إلا نتيجة لهذا الطبع المتوارث عند العرب.. فإذا كان الفارس يدفع عن قومه بسنانه فإن الشاعر–أيضا– يذب عن قومه بلسانه، حتى يبعث فيهم روح التضحية والبطولة والإقدام، كما يدعو الجبان فيحيله شجاعا، وينفث في روع الخائف، فيجعله مقداما، هذا بجانب التعريض بخصومهم، وهجاء سادتهم، وإشاعة التخويف فيهم، حتى يفت في عضدهم فلا يقووا على محاربة قومه. وهذه مهمة تجعل الشاعر مقدما على الفارس، لما يتركه الشعر من أثر دائم في النفوس(١).

وهذا هو الذي حدث من الشعر تجاه احتلال الصليبيين للقدس، فقد "كان بيت المقدس المحور الذي يدور حوله التحريض، فإذا اقترب الخطر منه اشتد التحريض على جهاد الصليبيين وكثر الإلحاح في حماية الأماكن المقدسة من اعتداء الإفرنج، وإذا بعد الخطر خفت وطأة التحريض إلى حد ما"(٢).

ولو أمكن أن يجمع الشعر الذي قيل في هذا الباب لعماد الدين زنكي أولا، ولنور الدين بن عماد الدين ثانيا، ولصلاح الدين الأيوبي ثالثا، لو أمكن أن يجمع ما قيل حولهم من شعر ونثر يخص بيت المقدس إبان الحروب الصليبية، لوقع في عدة مجلدات، يمكن أن يدرك منها مدى الكفاح الشعري الذي نالته قضية القدس، حينئذ، تصويرًا لمكانتها الإسلامية، وتبيانًا لما حدث لها من مآس: قتلاً واغتصابًا، وتشريدًا، وانتهابًا، كذلك كافح الشعراء في ميدان الحث على الجهاد، والتحريض على التحرير لهذه البقعة المباركة.

---

(١) راجع مقال "أثر الشعر في حياة العرب" د. حسن عبد الرحمن سليم، في مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق ٢٤٢/١٦ وما بعدها–طبع مكتبة نور الصباح سنة ١٤١٤هـ=١٩٩٦م.

(٢) الحروب الصليبية صـ ٣. ٦، وراجع مقالات في الأدب الإسلامي صـ ١٩١ وما بعدها.

وذلك حال الشعر العربي منذ أوليته الجاهلية حتى آننا هذا، فتاريخ الكلمة الأدبية هو "تاريخ صراع الحق والباطل على الأرض .. صراع أفكار وكلمات قبل أن يكون صراع أبدان وأسلحة، وما زال الصراع صراع أفكار وكلمات في ديمومته وجوهره، وسيظل كذلك إلى أن تقوم الساعة، فليست المصادمات الفعلية دائمة، وليس لاصطراع الأسلحة استمرارية، أما صراع الكلمات والأفكار فهو الصراع الذي لا ينقطع ولا يهدأ، وقد كان–وما يزال–انتصار الكلمة والفكرة هو الانتصار الحقيقي، وما اصطراع الأسلحة والجيوش إلا وسيلة إلى هذه الغاية، ولو تحقق انتصار الفكرة والكلمة لما كانت هناك ضرورة إشعال حروب ولا لسفك دماء"(١).

اقرأوا التاريخَ إذ فيه العِبَرْ ضلَّ قومٌ ليس يدرونَ الخبَرْ

وذلك كان هو دور كلمة الحق الشاعرة في تصوير حال القدس محتلة إبان الحروب الصليبية، حتى تحقق نصر الله للحق، فتحررت القدس، وتخلصت من نير الاحتلال ومآسيه، وكان ما تمناه الشعراء من رموز الجهاد وقتذاك. وقد جاء أغلب الشعر القدسي شفاهيًّا خطابيًّا، وجاء قليل منه كتابيًّا، لا سيما عند الشاعر الكاتب الصالح بن رزيك، على الرغم من كثرة الشعراء الكتاب حينئذ.

وأبرز شعراء القدس في العصر الوسيط هم: الأبيوردي (ت٥٠٧هـ)، وابن الخياط (ت٥١٧هـ)، والأرجاني (ت٥٤٢هـ)، وابن القيسراني (ت٥٤٨هـ)، وابن رزيك (ت٥٥٦هـ)، والعماد الأصفهاني الكاتب (ت٥٩٧هـ)، وابن مجاور (ت٦٠١هـ)، وابن الساعاتي (ت٦٠٤هـ)، وابن عنين (ت٦٣٠هـ)، وعبدالمنعم الجلياني (ت٦٣٠هـ)، وجمال الدين بن مطروح (ت٦٥٩هـ)،... وغيرهم ممن حملوا أنفسهم حلم تحرير القدس، وحرضوا كل من ظنوا فيه خيرًا على أن ينهض بهذه المهمة.

---

(١) الأدب الإسلامي ضرورة صـ ٣٧، د. أحمد محمد علي، دار الصحوة للنشر سنة ١٤١١هـ = ١٩٩١م. وراجع في ذلك الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، د. صابر عبد الدايم يونس، طبع دار الأرقم ١٩٩٩م.

واتسم الشعر القدسي في بداياته بأنه أبيات يتيمة أو نُتف أو قِطَع، والوظيفة منه أنه دلل على كون القدس عربية منذ العصر الجاهلي لورودها باسمها(القدس)، واسمها(أورسالم) في شعر صحيح النسبة إلى امرئ القيس والأعشى وعمرو بن شأس الأسدي، وكذا في شعر الصحابي زياد بن حنظلة التميمي، وفي شعر لكبار شعراء العصر الأموي، ثم انتقل الشعر القدسي في العصر الوسيط إلى قالب القصيدة، وقالب المطولة، ويتضح فيها العمق الفكري، والحرص على التوثيق التاريخي، وبروح عاطفة الجهاد والقوة والعزة، ووضوح المعجم وسلاسة التعبير، والبعد عن الغرابة والتعقيد، والتجديد في الصور لا سيما في وصف المعارك الحربية، ودخول بعض الألفاظ الإفرنجية لا سيما في أسماء المدن والمواقع، وأسماء قادة الروم / الصليبيين وألقابهم العسكرية أو السياسية وأحيانا الدينية!.

إن الشعر القدسي في العصر الوسيط شعر مقاوم، مفكر، واصف للواقع الاحتلالي حزين عليه، ومحفز على تجاوزه، وداع إلى الجهاد والتحرير، وفرح مبتهج مُبشِّر بكل نصر وفتح!. وإن شاء الله تعالى أقدم في بحث قادم رؤيتي عن (تبشير الشعر العربي التراثي بتحرير القدس).

وأرى أن هذا البحث يفتح أمام الباحثين مناطق جديدة من الدرس والنقد، منها:

– دور الكتابة التراثية في التعريف بقضية القدس، العماد الأصفهاني أنموذجًا.

– الأنساق الثقافية المضمرة في الرسائل الشعرية في العصر الأيوبي.

– فنون النثر في العصر الأيوبي، وأثر الحالة السياسية فيها.

– أثر الحروب الصليبية في المعجم الشعري التراثي.

– موقف الشعراء الكتاب من قضية القدس.– الخطابية في القدسيات الشعرية.

– الأنا والآخر في القدسيات الشعرية. –الرحلات القدسية في التراث العربي

حفظ الله القدس الشريف، وبارك أهلها المرابطين والمجاهدين، وكتب لنا فيها صلاة وهي محررة منصورة، إن شاء الله تعالى.

أبرز المصادر والمراجع

١- **إتحاف الأخصا بفصل المسجد الأقصى** للسيوطي، الهيئة المصرية للكتاب، طبع سنة ١٩٨٢م.

٢- **إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها**، ماجد عرسان الكيلاني، كتاب الأمة، طبع سنة ٢٠١٧م.

٣- **الأدب الإسلامي ضرورة**، د. أحمد محمد علي، دار الصحوة للنشر، طبع سنة ١٤١١هـ=١٩٩١م.

٤- **الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق**، د. صابر عبد الدايم يونس، طبع دار الأرقم سنة ١٩٩٩م.

٥- **الأدب العربي بين الصدق الفني والأخلاقي في صدر الإسلام**، د. شوقي حمادة، طبع سنة ١٩٧٩م.

٦- **الأدب العربي في العصر الوسيط**، د. صبري فوزي أبوحسين، طبع سنة ٢٠١٤م.

٧- **الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية**، الأستاذ: عبداللطيف حمزة، طبع مكتبة النهضة المصرية، طبع سنة ٢٠٠٠م.

٨- **الأدب المفرد للبخاري**، تح: محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة السلفية، طبع سنة ١٣٧٩هـ.

٩- **أسس النقد الأدبي عند العرب**، د. أحمد بدوي، دار نهضة مصر، طبع سنة ١٩٩٦م.

١٠- **البداية والنهاية** لابن كثير (ت٧٧٤هـ) دار الفكر بيرت لبنان .د.ت.

١١- **تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر**، د. إبراهيم على أبو الخشب، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبع سنة ١٩٧٦م.

١٢- **تاريخ دولة آل سلجوق**، عماد الدين الأصفهاني (ت٥٩٧هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، دار الكتب العلمية، طبع سنة ٢٠٠٤م.

١٣- **الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي**، الأستاذ: محمد سيد كيلاني، طبع دار الفرجاني سنة ١٩٨٤م.

١٤- **الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي** بقيادة نور الدين الشهيد في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، للدكتور علي الصلابي، طبع مركز الكتاب الأكاديمي، طبع سنة ٢٠١٦م.

١٥- **ديوان ابن الخياط**، تحقيق خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، لبنان، سنة ١٤١٤هـ.

١٦- **ديوان الأبيوردي** تحقيق د. عمر الأسعد، مؤسسة الرسالة ط٢ سنة ١٤١٧هـ.

١٧- **ديوان دعبل الخزاعي**، تحقيق: د. عبد الصاحب عمران الدخيلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط١ سنة ١٩٧٢م.

١٧- **السلوك لمعرفة الملوك للمقزيري**، تح د. مصطفى زيادة، طبع دار الكتب المصرية سنة٢٠١٥م.

١٩- **الشوقيات**، طبع دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، وطبعة مؤسسة هنداوي الإلكترونية سنة٢٠٢٢م.

٢٠- **الطريق إلى بيت المقدس**، د. جمال عبدالهادي محمد مسعود، طبع دار الوفاء سنة ٢٠٠٥م.

٢١- **عصر الدول والإمارات (الشام)**، د. شوقي ضيف، دار المعارف.

٢٢- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، ابن رشيق القيرواني، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، طبع دار الجيل سنة ١٩٨١م.

٢٣- **عيون الأخبار** لابن قتيبة دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤١٨هـ.

٢٤- **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين** النورية والصلاحية لأبي شامة

المقدسي(٦٦٥هـ)، طبع دار الجيل، بيروت، لبنان.

٢٥- **في التفسير الإعلامي للأدب** ، د. عبدالعزيز شرف، طبع الهيئة العامة سنة٢٠٠٢م.

٢٦- **قاموس المصطلحات التاريخية**، إنكليزي عربي، أنور محمود زناتي طبع مكتبة الأنجلو المصرية سنة ٢٠٠٧م.

٢٧- **القدس في شعر عصر الحروب الصليبية**، د. صبري أبو حسين، دار إيتراك سنة ٢٠٠٠م.

٢٨- **القدس والقصيدة العمودية القديمة:** جدل الاسم وجمال الدلالة، د.عبدالحميد المعيني، طبع دار الشروق، سنة ٢٠٢١م.

٢٩- **قيام الدولة الأيوبية**، د. وفاء محمد علي، دار الفكر العربي سنة ١٩٨٧م

٣٠- **القيم الخلقية في الشعر العماني الحديث**، صالح الشعيلي، الجمعية العمانية للكتاب والأدباء سنة ٢٠٢٢م.

٣١- **الكامل في التاريخ** لابن الأثير (ت٦٣٦هـ)، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، سنة ١٩٩٧م.

٣٢- **المبشرات والقدسيات**، تحقيق: عبدالجليل عبدالمهدي، طبع دار البشير سنة ١٩٨٩م.

٣٣- **معجم البلدان** لياقوت الحموي (٦٢٦هـ)، دار صادر بيروت سنة ١٩٩٥م.

٣٤- **معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية**، أنور محمود زناتي سنة ٢٠١١م.

٣٥- **معجم المصطلحات السياسية في لغة الفقهاء**، د. سامي الصلاحات، طبع سنة ٢٠٠٦م.

٣٦- **مقالات في الأدب الإسلامي**، د. عمر الساريسي، طبع دار الفرقان

بالأردن سنة ١٩٩٦م.

٣٧- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** لابن تغري بردي(ت٨٧٤هـ)، طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب بمصر.

٣٨- **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** لبهاء الدين بن شداد (ت٦٣٢هـ)، مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٩٩٤م.

٣٩- **هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًّا**، محمود أحمد الخازندار، طبع دار طيبة بالرياض سنة ١٩٩٧م.

أبرز المقالات والأبحاث العلمية:

٤٠- بحث: **(آفاق الرؤية الشعرية في شعر هاشم الرفاعي)**، الدكتور/صابر عبد الدايم، في مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد الحادي والعشرون، طبع مركز آيات للطباعة والكمبيوتر سنة ١٤٢١هـ=٢٠٠١م.

٤١- بحث: **(أثر الشعر في حياة العرب)**، د. حسن عبد الرحمن سليم، في مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق، طبع مكتبة نور الصباح سنة ١٤١٤هـ=١٩٩٦م.

٤٢- بحث: **(تحقيب الأدب العربي قراءة نقدية في أبجدياته وإشكالياته)**، أ.د. صبري فوزي أبوحسين، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق، ع ١٣، سنة ٢٠٢٣م، وهو مثبت في موقع مجلة الكلية على بنك المعرفة المصري.

٤٣- مقال: **(الشعر والأدب في وسائل الإعلام)**، د. صلاح فضل، المنشور في جريدة المصري اليوم بتاريخ ٢٠١٩/١/١٨م.

٤٤- مقال: **(الشعر هل هو حقا ديوان العرب)**، مقال في جريدة العربي، د. محمد رجب النجار، يونية سنة ٢. . ٢م.

٤٥- مقال: **(نور الدين محمود الطريق إلى فلسطين)**، د. عماد الدين خليل، مجلة العربي عدد جمادى الأولى لسنة ١٣٩٩هـ.

فهـرس المـوضـوعـات

م	الموضوع	صـ
١-	**المقـدمـة** :.....	٥٦٤
٢-	**التمهيد: اصطلاحات البحث الرئيسة** :.....	٥٦٧
٣-	[١] الوظيفة الإعلامية للشعر :.....	٥٦٧
	[٢] مصطلح الشعر التراثي :.....	٥٧١
	[٣] مصطلح النصرة :.....	٥٧٤
	[٤] مصطلح قضية القدس :.....	٥٧٥
	المبحث الأول **بدايات الشعر التراثي مع القدس**	٥٧٦
٤-	**المبحث الثاني** **إعلام الشعر التراثي باحتلال الصليبيين للقدس**	٥٨٦
٥-	**المبحث الثالث** **دعوة الشعر التراثي إلى ضرورة تحرير القدس**	٥٩٥
٦-	**المصادر والمراجع** :.....	٦٠٨
٧-	**فهرس الموضوعات** :.....	٦١٢